تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس

جميع حقوق الطبع والنسخ والنشر محفوظة

الطبعة الأولى ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م

رقم الإيداع
١٨٢١٣ / ٢٠٠٤
الترقيم الدولي I.S.B.N.
977-209-117-8

لا يجوز إعادة نسخ أو طبع أو نشر هذا الكتاب أو أى جزء منه بأى طريقة كانت ميكانيكية أو إلكترونية أو التصوير أو التسجيل أو البث عن طريق الشبكات الإلكترونية أو غيرها إلا بموافقة الناشر

على ذلك كتابة ومقدماً

المكتب المصري الحديث

www.almaktabalmasry.com

info@almaktabalmasry.com

القـــاهرة: ٢ شارع شريف عمارة اللواء ت: ٣٩٣٤١٢٧

الإسكندرية: ٧ شـــارع نوبـــار المنشـــية ت: ٤٨٤٦٦٠٢

تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس

للعارف بالله أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله السكندري

تحقيق

المستشار

مصطفى فراعلي الشقيري

المكتب المصري الحديث

www.almaktabalmasry.com

إهداء

إلى التائهين فى بيداء الحياة المادية فظمئت نفوسهم واحترقت قلوبهم، أُهدي إليهم ما يقودهم إلى واحة الأمان والاطمئنان، مع رائعة من روائع الأدب الصوفي فى تهذيب النفوس.

المقدمة

رسالة (تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس) للعارف بالله أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله السكندري الشهير بابن عطاء الله السكندري.

هذه الرسالة قد حوت من الآداب والحكم التربوية لتهذيب النفس البشرية وتقويمها وربطها بخالقها وهى ليست كلامًا مسرودًا، إنما هى خلاصة وافية ورحيق مصفى لمنهج التربية الروحية الإسلامية، عاشها المؤلف عمليًا فى حياته، وهضمها فى نفسه وقلبه، ثم أخرجها لنا كما تخرج النحلة العسل المصفى من بطنها بعد تطوافها فى حقول الزهور، وامتصاصها للرحيق.

نتعرف من خلالها على تجربة واحد من أعلام الصوفية ومنهجهم فى تربية النفس. وما أحوج هذا الجيل إلى قراءة هذا اللون من الأدب الإسلامي الراقي، الذى يهذب النفوس والقلوب التى غرقت فى أوحال المادة التى طغت على الناس فى هذا الزمان.

وحذار أيها القارئ المتشوق إلى المعرفة أن تعرض عن قراءة هذه الرسالة لمجرد أنها كلمات كتبها علم من أعلام الصوفية، وأنت قد تكون من المنكرين للصوفية ورجالها، لا أقول لك دعك من الاسم، فإن ذلك ليس من الإنصاف فى شيء، اذهب إلى المسمى فعساك أنت واجد فيها ما يصلح من شأنك والحكمة ضالة المؤمن، وإن وجدت شيئًا تنكره فدعه إلى غيره، وهو كثير فى هذه الرسالة النافعة المفيدة.

أسأل الله العلي القدير أن ينور بصائرنا ويهذب نفوسنا ويهدي قلوبنا ويجعلنا من المنصفين.

وأنوه إلى أنني لم أنل شرف الانتماء إلى الصوفية، إنما أجل الصوفية – الحقة الخالية من الشوائب والشطحات التى تتعارض مع صفاء ونقاء العقيدة الإسلامية – باعتبارها منهجًا من مناهج التربية والتهذيب، نابعة من الفهم الصحيح للإسلام.

المستشار

مصطفى فراعلى الشقيري

ترجمة المؤلف

هو تاج الدين أبو الفضل أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله السكندري.

ولد بمدينة الإسكندرية سنة ٦٥٨هـ - ١٢٦٠م وتوفي في جمادى الآخرة سنة ٧٠٩هـ - ١٣٠٩م. نشأ ابن عطاء الله في مدينة الإسكندرية وتفقه في العلوم الشرعية، وكان فقيهًا في مذهبي الإمامين مالك والشافعي، وكان منكرًا للصوفية والصوفيين، وفى طليعتهم المربي الكبير أبو العباس المرسي، الذى كان علم الصوفية في تلك الحقبة من الزمن، فالتقى به ابن عطاء، فكان هذا اللقاء مرحلة تحول في حياته، فبعد أن كان من المنكرين للصوفية ورجالها وعلومها، صار التلميذ المفضل لأبي العباس المرسي، فاهتدى بهديه، وسار على طريقته حتى صار واحدًا من أعلام الصوفية ومن كبار المربين والمرشدين يهدي الناس بروائع حكمه.

لقاؤه بأبي العباس :

يذكر ابن عطاء الله قصة تعرفه بأبي العباس في كتابه " لطائف المنن " فيقول: كنت لأمره - أي أبي العباس - من المنكرين، وعليه من المعترضين، لا لشيء سمعته منه، ولا شيء صح نقله عنه، حتى جرت بيني وبين أصحابه مقابلة، وذلك قبل صحبتي إياه، وقلت لرجل منهم: ليس إلا أهل العلم بالظاهر، وهؤلاء القوم يدعون إلى أمور عظيمة، ظاهر الشرع يأباها ثم قلت في نفسي: دعني أذهب إلى هذا الرجل وأنظر في شأنه، فصاحب الحق له أمارات لا تخفى، فأتيت مجلسه فوجدته يتكلم في الأنفاس التى أمر الشارع بها فقال:

" الأول إسلام والثاني إيمان والثالث إحسان، وإن شئت قلت: الأول عبادة والثاني عبودية والثالث عبودة، وإن شئت قلت الأول شريعة والثاني حقيقة والثالث تحقق، فماذا يقول: وإن شئت قلت وإن شئت قلت: إلى أن بهر عقلي وعلمت أن الرجل إنما يغترف من فيض بحر إلهي ومدد رباني، فأذاب الله ما كان عندي ".

ويستطرد ابن عطاء الله في قصته مع الشيخ أبي العباس فيقول: " ثم أتيت إلى المنزل فوجدت معنى غريبًا لا أدري ما هو فانفردت في مكان أنظر إلى السماء

وإلى كواكبها وما خلق الله فيها من عجائب قدرته، فحملني ذلك على العودة إليه مرة أخرى ".

فأتيته فاستؤذن لي عليه فلما دخلت عليه قام قائمًا وتلقاني ببشاشة وإقبال، حتى دهشت خجلاً واستصغرت نفسي أن أكون أهلاً لذلك؛ فكان أول ما قلت له: يا سيدي أنا والله أحبك، فقال: أحبك الله كما أحببتني، ثم شكوت إليه ما أجده من هموم وأحزان، فقال: " أحوال العبد أربعة لا خامس لها: النعمة والبلية والطاعة والمعصية، فإن كنت بالنعمة فمقتضى الحق منك الشكر، وإن كنت بالبلية فمقتضى الحق الصبر، وإن كنت بالمعصية فمقتضى الحق منك الاستغفار، وإن كنت بالطاعة فمقتضى الحق منك شهود مننه عليك ".

فقمت من عنده وكأن الهموم والأحزان ثوبًا نزعته، ثم سألني بعد ذلك بمدة، كيف حالك؟ فقلت: أفتش عن الهم فما أجده فقال: " الزم فوالله لتكونن فقيهًا في المذهبين، يريد مذهب أهل الشريعة من أصحاب العلوم الظاهرة ومذهب أهل الحقيقة من أصحاب علوم الباطن ".

ولقد تحققت نبوءة أبي العباس المرسي وأصبح لابن عطاء الله الصدارة في علم الشريعة والحقيقة، فمزج بينهما، ونبغ فيهما، وبعد موت شيخه أبي العباس آلت إليه رئاسة الطريقة الشاذلية، وأصبح له في الجامع الأزهر درس خاص بالتلاميذ والمريدين يملي عليهم دروسه في الفقه والتفسير والتصوف وآدابه، حتى وافته المنية في جمادى الآخرة سنة ٧٠٩هـ - ١٣٠٩م. ودفن في القرافة الصغرى وقبره معروف حتى اليوم تحت جبل المقطم من الجهة الشرقية لجبانة الإمام الليث.

وقد أثرى المكتبة الإسلامية بالعديد من المؤلفات نذكر منها:

- التنوير في إسقاط التدبير.
- مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح.
- الحكم العطائية.
- تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس وهو موضوع البحث الذى نحن بصدده.

تعريف التصوف

للتصوف تعريفات كثيرة نذكر منها

هو: الدخول في كل خُلُق سَنِيّ، والخروج من كل خلق دَنِيّ.

هو: أخلاق كريمة ظهرت في زمان كريم مع قوم كرام.

هو: ألا تملك شيئًا ولا يملكك شيء.

هو: استرسال النفس مع الله على ما يريد.

هو: الأخذ بالحقائق والإياس في أيدي الخلائق.

هو: ذكر مع اجتماع ووجد مع استماع وعمل مع اتباع.

وقال الشبلي: الصوفي منقطع عن الخلق متصل بالحق.

التصوف بين الحقيقة والادعاء

التصوف الإسلامي تربية علمية وعملية للنفوس، وعلاج لأمراض القلوب، وغرس للفضائل، واقتلاع للرذائل، وقمع للشهوات، وتدريب على الصبر والرضا والطاعات.

وهو مجاهدة للنفس، ومكابدة لنزعاتها، ومحاسبة دقيقة لها على أعمالها وتُروكها، وحفظ للقلوب عن طوارق الغفلات وهواجس الخطرات، وانقطاع عما يعوق السالك في سيره إلى الله، وزهادة في كل ما يلهي عن ذكر الله ويَعلَقُ بالقلوب سواه.

وهو معرفة لله ويقين، وتوحيد لله وتمجيد، وتوجه إلى الله وإقبال عليه وإعراض عما سواه، وعكوف على عبادته وطاعته، ووقوف عند حدوده، وتعبد بشريعته، وتعرض لنفحاته التي يخص بها أولياءه وأحبابه فضلاً منه وكرمًا.

وجملة القول فيه قبل تدوينه كفن إسلامي وبعده: أنه علم وحكمة، وتبصرة وهداية، وتربية وتهذيب، وعلاج ووقاية، وتقو واستقامة، وصبر وجهاد، وفرار من فتنة الدنيا وزينتها وابتعاد.

وقد أشار إلى طرف من ذلك أبو محمد الجريري بقوله في وصف: إنه الدخول في كل خُلُق سَنِيّ، والخروج من كل خلق دَنِيّ. وقوله: التصوف مراقبة الأحوال ولزوم الأدب.

والأدب – كما أشار القشيري في " الرسالة " –: جماع خصال الخير، وحاصلها: التفقه في الدين، والزهد في الدنيا، والمعرفة بما لله عز وجل من حقوق.

وعن أبي نصر السرّاج: الناس في الأدب على ثلاث طبقات:

أما أهل الدنيا فأكثر آدابهم الفصاحة والبلاغة، وحفظ العلوم والمنظوم.

وأما أهل الدين فأكثر آدابهم في رياضة النفوس، وتأديب الجوارح، وحفظ الحدود، وترك الشهوات.

وأما أهل الخصوصية (يعني الصوفية) فأكثر آدابهم في طهارة القلوب، ومراعاة الأسرار، والوفاء بالعهود (التى بين العبد وربه)، وحفظ الوقت، وقلة الالتفاف إلى الخواطر، وحسن الأدب في موقف الطلب وأوقات الحضور ومقامات القرب. انتهى.

فالتصوف كما ترى: لب الشريعة وروحها، وثمرتها وحكمتها، وقد قال سيد الطائفة الجنيد: علمُنا هذا مقيد بالكتاب والسنة، ومن لم يحفظ القرآن، ولم يكتب الحديث لا يُقتدى به في هذا الأمر، والطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر الرسول صلى الله عليه وسلم.

وقد اختص هذا النوع من العلم الشرعي في عصر التدوين – كما أشار إليه ابن خلدون في " مقدمته " – باسم (التصوف أو علم الحقيقة)، كما اختص النوع الآخر منه الخاص بالأحكام الفرعية في العبادات والمعاملات باسم (الفقه أو علم الشريعة).

وقال بعض الصوفية في بيان ترابط هذين العلمين وتعاونهما في تكوين شخصية المسلم الكامل ظاهرًا وباطناً، حسنًا ومعنى، مادة وروحًا: " حقيقة بلا شريعة باطلة، وشريعة بلا حقيقة عاطلة " فهما للمسلم كجناحي الطائر، لا يستقل بأحدهما دون الآخر.

ذلك هو التصوف النقي من الشوائب، الذى لم يخالطه زيغ ولا شطط، ولا جهل ولا ابتداع. وهو تصوف العلماء والنساك العارفين بالله، القائمين على حدوده، المتمسكين بشريعته، أمثال أبي سعيد الحسن البصري المتوفى سنة ١١٠، وأبي

إسحاق إبراهيم بن أدهم البلخي المتوفى سنة ١١٦، وأبي سليمان داود بن نصير الطائي المتوفى سنة ١٦٥، وأبي على الفضيل بن عياض الخراساني المتوفى بمكة سنة ١٨٧، وأبي محفوظ معروف بن فيروز الكرخي المتوفى ببغداد سنة ٢٠١.

وأمثال أبي نصر بشر بن الحارث الخافي المروزي، ثم البغدادي المتوفى سنة ٢٢٧، وأبى عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي البصري، صاحب هذه الرسالة " رسالة المرشدين " المتوفى سنة ٢٤٣، وأبي الفيض ذى النون المصري المتوفي ٢٤٥، وأبي الحسن سري بن المغلس السقطي المتوفى سنة ٢٥٧، وأبي زكريا يحيى بن معاذ الرازي الواعظ، المتوفى بنيسابور سنة ٢٥٨، وأبي سعيد أحمد بن عيسى الخراز البغدادي، المتوفى سنة ٢٧٧، وأبى محمد سهل بن عبد الله التستري، المتوفى سنة ٢٨٣، وأبي القاسم الجنيد البغدادي شيخ الطائفة المقدَّم، المتوفى سنة ٢٩٧.

وأمثال أبي محمد رويم بن أحمد البغدادي، المتوفى سنة ٣٠٣، وأبي العباس أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء المتوفى سنة ٣٠٩، وأبي محمد أحمد بن محمد الجريري المتوفى سنة ٣١١، وأبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري صاحب " الرسالة " المشهورة، المتوفى سنة ٤٦٥، وحجة الإسلام محمد بن محمد الغزالي صاحب " الإحياء " المتوفى سنة ٥٠٥.

وأمثال أبى محمد عبد القادر الجيلاني المتوفى سنة ٥٦١، وأبي حفص عمر بن محمد السهروردي، صاحب " عوارف المعارف " المتوفى سنة ، والإمام أبى الحسن الشاذلي على بن عبد الله، المتوفى سنة ٦٥٦، أبي أحمد بن عمر بن المرسى، المتوفى بالإسكندرية سنة ٦٨٦، وأبى الفضل أحمد بن محمد بن عطاء الله الإسكندري، المتوفى سنة ٧٠٩، والإمام ابن القيم المتوفى سنة ٧٥١.

وأمثال السيد عبد الله بن علوي الحداد الحضرمي، المتوفى بحضرموت سنة ١١٣٢، وشمس الدين محمد بن سالم الحفني، المتوفى بمصر سنة ١١٨١، وأبى البركات أحمد الدردير العدوي المالكي المتوفى بمصر سنة ١٢٠١، وغيرهم ممن لا يحصيهم العد، من المتقدمين والمتأخرين من أعلام أئمة التصوف العارفين، في مختلف العصور رضى الله عنهم أجمعين.

ولهؤلاء الأئمة وأضرابهم كلام جيد رصين، وحكم شافية، ومؤلفات قيمة في الأصول والفروع، والأعمال النفسية وأحوال القلوب وخطراتها، وأخطارها وعلاجها، وفي الآداب والأذواق والمواجيد، والأحوال النفسية والمجاهدات، على تشدد من بعضهم في السلوك وتفاوت حسب تفاوت أقدارهم في العلم والذوق والعرفان.

وجميعهم إنما يصدرون في ذلك عن كتاب الله وهدى النبوة، وما روي عن العارفين من أئمة الإسلام من أقوال وأعمال وأحوال.

هذا هو التصوف الصادق الذى ملأ سمع الدنيا وأعينها قبل عصر التدوين وبعده، وهؤلاء وأمثالهم هم الصوفية حقًا، الصادقون قولاً وفعلاً، ومنهم المحاسبي رضى الله عنه.

التصوف المنتحل:

وهناك تصوف زائف انتحله قديمًا فئام من الناس، أُشربوا تعاليم الباطنية الحلولية، وتدثروا بدثار الصوفية، اجتذابًا للعامة، وتغريرًا وخداعًا وتلبيسًا، ودسوا في التصوف إلحادهم ومقالاتهم الشنيعة في الدين إضلالاً للمسلمين، هؤلاء ليسوا من الصوفية ولا التصوف في شيء، وينكرهم كل الإنكار أولئك الأعلام الذين ذكرناهم وأضرابهم، ويحسبونهم أدعياء في نسبه مزورين، وزنادقة ملحدين.

وقد كشف خبثهم، وفند مزاعمهم، وأبطل تصوفهم كثير من الأئمة، ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية والإمام ابن القيم رضى الله عنهما.

وهناك آخرون انتسبوا إلى الصوفية زورًا، واتخذوها سمة وحرفة، وتوارثوا فيما بينهم بدعًا وشعارات زائفة، وتقاليد منكرة، يبرأ منها التصوف وأعلامه من أولي العلم واليقين.

وهؤلاء كذلك أدعياء في التصوف، دخلاء في الصوفية، مبتدعون آثمون.

وإحقاقًا للحق، وإنصافًا للصادقين: يجب أن لا يحملوا أوزار أولئك الأدعياء المبطلين، وأن لا يطلق القول في ذم التصوف والصوفية، بل يعطى كل فريق حقه من المدح والذم، ومن الترغيب أو التحذير، دون تعصب أو تحيُّف.(١)

ويتحدث الإمام الشهيد حسن البنا – رحمه الله – عن التصوف في مقال منشور في صحيفة الإخوان المسلمين الأسبوعية ص ١٠٦ – ١٠٨ سنة ١٩٣٤م يقول فيه: " التصوف الإسلامي بمعناه الصحيح يستمد أصوله وقواعده من كتاب الله وسنة رسول ﷺ ككل علم إسلامي، وذلك هو الذى تظاهرت عليه أقوال شيوخه وأئمته ".

قال الجنيد قدس الله سره: " علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة، فمن لم يسمع الحديث، ويجالس الفقهاء، ويأخذ أدبه عن المتأدبين، أفسد من اتبعه ".

وقال سهل بن عبد الله: " بنيت أصولنا على ستة أشياء: كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، وكف الأذى، وأكل الحلال، واجتناب الآثام، والتوبة، وأداء الحقوق ".

وقال أبو عثمان الخيرى: " من أمّر السنة على نفسه نطق بالحكمة، ومن أمّر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة ".

وقال أبو القاسم النصرآبادي: " أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة وترك الأهواء والبدع ".

والأقوال في ذلك كثيرة، حتى قال الحسن الشاذلي: " إذا استند كشف الولي إلى غير الكتاب والسنة، فهو كشف شيطاني ولا يؤخذ عنه ولا يسلم ".

والقاعدة عندهم أن السنة هى الأصل، لأن صاحبها صلوات الله وسلامه عليه معصوم من الخطأ، وما عداها تابع، لأن قائليه غير معصومين، فكل كلام غيرها يعرض عليها، فإن وافقها قبل وإلا رفض.

وقد صار الناس يطلقون كلمة صوفي، وابن طريق، وولى، ودرويش (وهى كلمة فارسية معناها: مريد أو ما يقرب من ذلك) على كل من ظهرت عليه علامات التقشف ورثاثة الثياب، وعدم العناية بنظافة الجسم، أو كل من ظهرت عليه دلائل البله بشئون الحياة، أو كل من تكاسل عن أداء الفرائض الدينية وارتكب المخالفات،

---

(١) الشيخ حسنين مخلوف، نقلاً عن رسالة المسترشدين للحارث المحاسبي، تحقيق وتعليق عبد الفتاح أبو غدة

وادعى أعذارًا مجهولة، كأنه يصلي في الكعبة، أو أنه ينظر في اللوح المحفوظ، فيرى أن المعصية مقدرة عليه، فهو ينفذها لذلك، أو أنه وصل إلى درجة رفع عنه فيها التكليف، أو أن حقائق الأشياء تنقلب له، فيصير الخمر ماءً، إلى غير ذلك من المزاعم.

وقد يستدل بعضهم بما ينسب لبعض الشيوخ من قوله:

فلا تلم السكران في حال سكره فقد رفع التكليف في سكرنا عنا

وقد علمت مما سبق أن التصوف بريء من هذه المزاعم مشيد بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وأن الصوفي لا يكون صوفيًا إلا بالتمسك بهما، والولي لا يكون وليًّا إلا إذا اهتدى بهديهما. فهما عماد الوصول، ومنار طريق السلوك، ولن يصل السالك إلى شيء من نور الهداية والمعرفة إلا بصدق التوجه والعمل بهما.

هذه أقوال المحققين من الصوفية أنقلها إليكم وهي قليل من كثير لتعلم كيف تعلق الناس بالأسماء وتركوا الحقائق وأخذوا القشور ورموا اللباب.

وما أظرف قول القائل

ليس التصوف ابس الصوف ترقعه ولا بكاؤك إن غنى المغنونا
ولا صياح ولا رقص ولا طرب ولا اضطراب كأن قد صرت مجنونا
بل التصوف أن تصفو بلا كدر وتتبع الحق والقرآن والدينا
وأن تُرى خاشعًا لله مكتئبًا على ذنوبك طول الدهر محزونا

وقول الآخر:

ألم يعلموا أن الطريق كناية عن العمل الجارى وفق شرعنا
وذبح النفوس الضاريات بمدية من الخلف حتى لا تميل إلى الخنا

فما أشد الغفلة، وما أعظم سلطان الألفاظ!

وما أبعد العرف عن الحقيقة، فاعرف ذلك جيدًا واطلب لباب الأمور لتكون من الصادقين في الطلب، الواصلين إلى درجات القرب، إن شاء الله. أ . هـ.

أيها العبد اطلب التوبة من الله في كل وقت؛ فإن الله تعالى قد ندبك[1] إليها؛ فقال تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[2] وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾[3] وقال رسول الله ﷺ " **إني ليغان على قلبي وإني لأستغفر في اليوم سبعين مرة** "[4] فإن أردت التوبة فينبغي لك ألاَّ تخلو من التفكر طوال عمرك، فتفكر فيما صنعت في نهارك فإن وجدت طاعة فاشكر الله عليها، وإن وجدت معصية فوبخ نفسك على ذلك، واستغفر الله وتب إليه، فإنه لا مجلس مع الله أنفع لك من مجلس توبخ فيه نفسك، ولا توبخها وأنت ضاحك فرح، بل وبخها وأنت مجدّ صادق مظهر للعبوسة حزين القلب منكسر ذليل، فإن فعلت ذلك أبدلك الله بالحزن فرحًا وبالذل عزًا وبالظلمة نورًا وبالحجاب كشفًا.

وعن الشيخ مكين الدين الأسمر - رحمه الله تعالى - وكان من السبعة الأبدال[5] قال كنت في ابتداء أمرى أخيط وأتقوت من ذلك وكنت أعد كلامي بالنهار، فإذا جاء المساء حاسبت نفسي فأجد كلامي قليلاً، فما وجدت فيه من خير حمدت الله وشكرته عليه، وما وجدت فيه من غير ذلك تبت إلى الله واستغفرته إلى أن صار بدلاً، رضي الله عنه[6].

---

(١) ندبك: دعاك

(٢) النور: ٣١

(٣) البقرة: ٢٢٢

(٤) رواه مسلم، والغين هو الغطاء يقال (غِين) على كذا أي: غُطي عليه ومنه هذا الحديث.
قال عياض: المراد بالغين فترات (فتور) عن الذكر الذي من شأنه أن يداوم عليه فإذا فتر عنه لأمر ما عد ذلك ذنبًا فاستغفر عنه. وقيل هو شيء يعتري القلب بما يقع من حديث النفس، وقيل هو السكينة التي تغشى قلبه والاستغفار لإظهار العبودية لله والشكر لما أولاه. وقيل هو حالة خشية وإعظام والاستغفار شكرها ومن ثم قال المحاسبي: خوف المقربين خوف إجلال وإعظام، وقال الغزالي في الإحياء: كان ﷺ دائم الترقي فإذا ارتقى إلى حال رأى ما قبلها دونها فاستغفر من الحالة السابقة (فتح الباري جزء١١ ص١٠٤).

(٥) الأبدال: جمع بَدَل وهو من أسماء الصالحين في الصوفية.
جاء في القاموس (مختار الصحاح) أن الأبدال قوم من الصالحين لا تخلو الدنيا منهم إذا مات واحد منهم أبدل الله تعالى مكانه بآخر.

(٦) قال عمر بن الخطاب: (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وتزينوا للعرض الأكبر، وإنما يخفُ الحساب يوم القيامة على من حاسب نفسه في الدنيا)، ويروى عن ميمون بن مهران قال: (لا يكون العبد تقيًا حتى يحاسب نفسه كما يحاسب شريكه من أين مطعمه وملبسه ومشربه) [سنن الترمذي نقلاً عن رسالة المسترشدين للمحاسبي - تحقيق عبد الفتاح أبو غدة ص ٤٨].

واعلم أنه إذا كان لك وكيل يحاسب نفسه ويحققها[1] فأنت لا تحاسبه لمحاسبته لنفسه، وإن كان وكيلاً غير مُحَقِّق لنفسه فأنت تحاسبه وتحققه وتبالغ في محاسبته، فعلى هذا ينبغي لك أن يكون عملك كله لله تعالى ولا ترى أنك تفعل فعلاً والله تعالى لا يحاسبك ولا يحققك[2] .

وإذا وقع من العبد ذنب وقع معه ظلمة، فمثال المعصية كالنار، والظلمة دخانها كمن أوقد في بيت سبعين سنة ألا تراه يسودُّ؟ كذلك القلب يسودُّ بالمعصية فلا يظهر إلا بالتوبة إلى الله؛ فصار الذل والظلمة والحجاب مقارنة للمعصية فإذا تبت إلى الله زالت آثار الذنوب[3] .

ولا يدخل عليك الإهمال إلا بإهمالك عن متابعة النبي ﷺ ولا تحصل لك الرفعة عند الله تعالى إلا بمتابعة النبي ﷺ والمتابعة له ﷺ على قسمين: جلية وخفية، فالجلية كالصلاة والصيام والزكاة والحج والجهاد وغير ذلك، والخفية أن تعتقد الجمع[4] في صلاتك والتدبر في قراءتك، فإذا فعلت الطاعة كالصلاة والقراءة ولم تجد فيها جمعًا ولا تدبرًا، فاعلم أن بك مرضًا باطناً من كبر أو عجب أو غير ذلك، قال الله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾[5] فيكون مثالك كالمحموم الذي يجد في فمه السكر[6] مرًا، فالمعصية مع الذل والافتقار خير من

---

(١) يحقق نفسه: يحكم محاسبتها ويلزمها بالحق.

(٢) يُحكم محاسبتك.

(٣) روى الترمذي وصححه عن أبي هريرة: (أن الرجل ليصيب الذنب فيسود قلبه فإن هو تاب صقل قلبه) قال: هو الرين الذي ذكره الله في القرآن.
يقول الإمام أبو حامد الغزالي في إحياء علوم الدين: (وكل شهوة اتبعها الإنسان ارتفع منها ظلمة إلى قلبه كما يرتفع من نفس الإنسان ظلمة إلى وجه المرآة الصقيلة فإن تراكمت ظلمة الشهوة صار رينا كما يصير بخار النفس في وجه المرآة عند تراكمه خبثًا، كما قال الله تعالى: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (المطففين:١٤).

(٤) الجمع: العزم على الأمر.

(٥) الأعراف: ١٤٦.

(٦) ومن يك ذا فم مريض يجد مرًا به الماء الزلال

طاعة مع العز والاستكبار[1]، قال الله تعالى حكاية عن إبراهيم الخليل – عليه وعلى نبينا محمد أفضل الصلاة وأتم التسليم –: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾[2] فمفهوم هذا أن من لم يتبعه ليس منه، وقال تعالى حكاية عن نوح عليه وعلى نبينا المصطفى أزكى الصلاة والسلام –: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾[3] فأجابه سبحانه بقوله تعالى: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾[4] فالمتابعة تجعل التابع كأنه جزء من المتبوع وإن كان أجنبيًا كسلمان الفارسي – رضي الله عنه – لقوله ﷺ " سلمان منا أهل البيت "[5] ومعلوم أن سلمان من أهل فارس ولكن بالمتابعة قال عنه ﷺ تعليمًا، فكما أن المتابعة تثبت الاتصال، كذلك عدمها يثبت الانفصال، وقد جمع الله الخير كله في بيت وجعل مفتاحه النبي ﷺ فتابعه بالقناعة بما يرزقه الله تعالى والزهد والتقلل من الدنيا وترك مالا يعني من قول وفعل، فمن فتح له باب المتابعة فذلك دليل على محبة الله له، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾[6] إذا طلبت الخير كله، فقل اللهم إني أسألك المتابعة لرسولك ﷺ في الأقوال والأفعال.

فمن أراد ذلك فعليه بعدم الظلم لعباد الله في أعراضهم وأنسابهم، فلو سلموا من ظلم بعضهم بعضًا لانطلقوا إلى الله ولكنهم معوقون كالمديان[7] بسبب من يطلبه. واعلم أنك لو كنت مخصصًا عند الملك مقربًا منه، وجاء من يطلبك بدين ضيق عليك ولو كان قدرًا يسيرًا فكيف بك إذا جئت يوم القيامة ومائة ألف إنسان أو أكثر يطلبونك بديون مختلفة من أخذ مال وقذف عرض وغير ذلك، فكيف يكون حالك. المصاب حقًا من محقته الذنوب والشهوات حتى جعلته كالشن[8] البالي هذا هو

---

(١) يقول ابن عطاء الله في كتابه الحكم: رب معصية أورثت ذلاً وانكسارًا خير من طاعة أورثت عزًا واستكبارًا.

(٢) إبراهيم:٣٦

(٣) هود:٤٥

(٤) هود:٤٦

(٥) مجمع الزوائد جزء ٦ ص ١٣٠ عزاه الطبراني في قصة ذلك أنه يوم الخندق وقف الأنصار يقولون سلمان منا، ووقف المهاجرون يقولون: سلمان منا؛ فقال ﷺ : (سلمان منا أهل البيت).

(٦) (آل عمران:٣١)

(٧) المديان: من كانت عادته أن يستدين ويستقرض.

(٨) الشن: القربة القديمة البالية.

المنكوب المعزى ذهبت مآكله وشهواته، ملأ بها المرحاض وأرضى بها زوجته، وياليتها كانت من حلال.

فأول المقامات التوبة ولا يقبل ما بعدها إلا بها، مثال العبد إذا فعل المعصية كالقدر الجديد يوقد تحتها النار ساعة فتسود، فإذا بادرت إلى غسلها انغسلت من ذلك السواد، وإن تركتها وطبخت فيها مرة بعد مرة ثبت السواد فيها حتى تكسر ولا يفيد غسلها شيئًا، فالتوبة هي التي تغسل سواد القلب، فتبرز الأعمال وعليها رائحة القبول، فاطلب من الله تعالى التوبة دائمًا، فإن ظفرت بها فقد طاب وقتك؛ لأنها موهبة من الله يضعها حيث شاء من عباده، وقد يظفر بها العبد المشقق الأكعاب دون سيده، وقد تظفر بها المرأة دون زوجها، والشاب دون الشيخ، فإن ظفرت بها فقد أحبك الله لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾[1] وإنما يغتبط بالشيء من يعرف قدره، ولو بدرت الياقوت بين الدواب لكان الشعير أحب إليهم؛ فانظر من أى الفريقين أنت، إن تبت فأنت من المحبوبين، وإن لم تتب فأنت من الظالمين، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[2] من تاب ظفر ومن لم يتب خسر، ولا تقطع يأسك وتقول كم أتوب وأنقض، فالمريض يرجو الحياة ما دامت فيه الروح، إذا تاب العبد فرحت به داره من الجنة وتفرح به السماء والأرض والرسول ﷺ؛ فالحق سبحانه لم يرض أن تكون محبًا، بل محبوبًا وأن المحبوب من المحب[3].

أف لعبد يعلم إحسان المحسن فيجترئ على معصيته، ولكن ما عرف إحسانه من آثر عصيانه، وما عرف قدره من لم يراقبه، وما ربح من اشتغل بغيره، فعلم أن النفس تدعوه إلى الهلكة فتبعها، وعلم أن القلب يدعوه إلى الرشد فعصاه، وعلم قدر المعصي فواجهه بالمعصية، ولو علم اتصافه بعظمته لما قابله بوجود معصيته،

---

(١) البقرة: ٢٢٢

(٢) الحجرات: ١١

(٣) أخرج البخاري في باب التوبة عن عبد الله بن مسعود: (أن الله أفرح بتوبة العبد من رجل نزل منزلاً وبه مهلكة ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام نومه فاستيقظ وقد ذهبت راحلته حتى اشتد الحر والعطش أو ما شاء الله قال أرجع إلى مكان فرجع فنام نومه ثم رفع رأسه فإذا راحلته عنده) وقال القرطبي في " المفهم ": هذا مثل قصد به بيان سرعة قبول الله توبة عبده التائب وأنه يقبل عليه بمغفرته ويعامله معاملة من يفرح بعمله (فتح الباري جزء ١١ ص ١٠٩).

وعلم قرب مولاه وأنه يراه فسارع لما عنه نهاه، وعلم أثر الذنب المرتب عليه دنيا وأخرى وغيبًا وشهادة، فما استحيا من ربه، ولو علم أنه في قبضته لما قابله بمخالفته.

واعلم أن المعصية تتضمن نقض العهد، وتحليل عقد الود، والإيثار[1] على المولى، والطاعة للهوى وخلع جلباب الحياء والمبادرة لله بما لا يرضى، مع ما في ذلك من الآثار الظاهرة من ظهور الكدور في الأعضاء، والجمود في العين، والكسل في الخدمة، وترك الحفظ للحرمة، وظهور كسب الشهوة، وذهاب بهجة الطاعات، وأما الآثار الباطنة: قساوة القلب، ومعاندة النفس، وضيق الصدر بالشهوات، وفقدان حلاوة الطاعات، وترادف الأغيار[2] المانعة من بروق شوارق الأنوار واستيلاء دولة الهوى إلى غير ذلك من ترادف الارتياب ونسيان المآب وطول الحساب، ولو لم يكن في المعصية إلا تبدل الاسم لكان ذلك كافيًا، فإنك إذا كنت طائعًا تسمى بالمحسن، وإذا كنت عاصيًا انتقل اسمك إلى المسيء المعرض، هذا في انتقال الاسم فكيف بانتقال الأثر، من تبدل حلاوة الطاعة بحلاوة المعصية، ولذاذة الخدمة بلذاذة الشهوة، هذا في تبدل الأثر فكيف بتبدل الوصف، بعد أن كنت موصوفاً عند الله بمحاسن الصفات، فيعكس الأمر فتتصف بمساوي الحالات، هذا في تبدل الوصف فكيف بتبدل المرتبة، فبعد أن كنت عند الله من الصالحين صرت عنده من المفسدين، وبعد أن كنت من المتقين صرت عنده من الخائنين، فإن كانت الذنوب منفتحة في وجهك فاستغث بالله والجأ إليه واحث التراب على رأسك وقل اللهم انقلني من ذل المعصية إلى عز الطاعة، وزر ضرائح الأولياء والصالحين وقل: يا أرحم الراحمين، أتريد أن تجاهد نفسك وأنت تقويها بالشهوات حتى تغلبك، وإلا فقد جهلت، فالقلب شجرة تسقى بماء الطاعة وثمراتها مواجيدها، فالعين ثمرتها الاعتبار، والأذن ثمرتها الاستماع للقرآن، واللسان ثمرته الذكر، واليدان والرجلان ثمرتهما السعي في الخيرات، إذا جف القلب سقطت ثمراته، فإن أجدب فأكثر من الأذكار ولا تكن كالعليل يقول: لا أتداوى حتى أجد الشفاء، فيقال له: لا تجد الشفاء

---

(١) الإيثار: من الأثرة وهي اختيار الشيء وتفضيله على غيره، ذلك أن العاصي قد آثر المعصية على طاعة الله.

(٢) ترادف الأغيار: يعني توالي المعاصي التي تغير ظلمتها وتحل محل أنوار الطاعات، يقال غير الشيء بدل به غيره.

حتى تتداوى، فالجهاد ليس معه حلاوة وما معه إلا رءوس الأسنة فجاهد نفسك هذا هو الجهاد الأكبر.

واعلم أن الثكلى لا عيد لها، بل العيد لمن قهر نفسه، لا عيد إلا لمن جمع شمله.. جاز بعضهم على دير راهب فقال له: يا راهب متى عيد هؤلاء القوم؟ قال: يوم يغفر لهم، ما مثالك مع نفسك إلا كمن وجد زوجته في حانة خمار فأتاها بالملابس الحسنة والمآكل الطيبة، وإذا تركت الصلاة أصبحت تطعمها الهرائس[1] والألوان، بقي بعضهم أربعين سنة لا يحضر الجماعة لما يشم من نتن قلوب الغافلين، فما أعرفك بمصالح الدنيا، وما أجهلك بمصالح آخرتك، مثال الدنيا عندك كمن خرج إلى الضيعة[2] واجتهد فخزن الأقوات فقد أنيت بما يعود نفعه عليك في وقته وأنت خزنت حياة الشهوات وعقارب المعصية فهلكت، كفى بك جهلاً أن الناس يخزنون الأقوات لوقت حاجتهم إليها وأنت تخزن ما يضرك وهي المعاصي هل رأيت من يأتي بحيات فيربيها في داره فهل أنت تفعل ذلك، وأضر ما يخاف عليك محقرات الذنوب[3] لأن الكبائر ربما استعظمتها فتبت منها، واستحقرت الصغائر فلم تتب منها، فمثالك كمن وجد أسدًا فخلصه الله منه فوجد بعده خمسين ذئبًا فغلبوه، قال الله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾[4] والكبيرة حقيرة في كرم الله فإذا أصررت على الصغيرة صارت كبيرة، لأن السم يقتل مع صغره، والصغيرة كالشرارة من النار، والشرارة قد تحرق بلدة.

من أنفق عافيته وصحته في معصية الله، فمثاله كمن خلف له أبوه ألف دينار، فاشترى بها حيات وعقارب، وجعلها حوله تلدغه هذه مرة، وتلسعه هذه أخرى، أفما تقتله؟ وأنت تمحق الساعات في مخالفته، فما مثالك إلا كالحدأة، تطوف على الجيفة حيثما وجدتها انحطت عليها، فكن كالنحلة صغير جسمها عظيمة همتها تجني طيبًا وتضع طيبًا.

---

(١) الهرائس: مفردها هريسة والهريسة نوع من الحلوى.

(٢) الضيعة: الأرض المُغلَّة التي تغل على صاحبها.

(٣) في حديث سهل بن ثابت: (إياكم ومحقرات الذنوب فإنما مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بطن واد فجاء ذا بعود وجاء ذا بعود حتى جمعوا ما أنضجوا به خبزهم وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه) (أخرجه أحمد بسند حسن). فتح الباري جـ١١، ص ٣٢٧

(٤) النور: ١٥

طالما تمرغت في مواطن المحن، فتمرغ في محاب الله عز وجل، فهذه الحقيقة تبين طريقك، ولكن من أمانته الغفلة لم ترده النكبات[1]، لأن المرأة الناقصة العقل يموت ولدها وهي تضحك، فكذلك أنت تنكب[2] عن قيام الليل، وعن صيام النهار، وفى جميع جوارحك ولم تتألم، وما ذلك إلا لأن الغفلة[3] قد أهانت قلبك، لأن الحي يؤلمه نقر الإبرة، ولو قطع الميت بالسيوف لم يتألم، فأنت حينئذ ميت القلب، فاجلس مجلس الحكمة، فيه نفحة من نفحات الجنة تجدها في طريقك وفى دارك وفى بيتك، فلا يفتك المجلس، ولو كنت على معصية فلا تقل ما الفائدة في حضور المجلس وأنا أعصي ولا أقدر على ترك المعصية؟ بل على الرامي أن يرمي فإن لم يأخذ اليوم يأخذ غدًا.

اعلم يا هذا إياك والمعصية، فقد تكون سببًا لتوقف الرزق، فاطلب من الله التوبة، فإن قبلت وإلا فاستغث بالله وقل: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[4] ولا تكن كمن أتى عليه أربعون سنة ولم يقرع باب الله قط، وأكثر ما يخاف عليك سوء الخاتمة، والعياذ بالله تعالى، بسبب إطفاء خمرة الإيمان بسواد المعصية، وهي الذنب على الذنب حتى يسودَّ القلب من غير توبة.

إياك أن تتهاون في أعمالك وتختار الطيبات لمرحاضك، واحذر نفسك التي بين جنبيك، فهى التي تحطب[5] عليك، ثم لا تفارق صاحبها إلى الممات، والشيطان يفارق في رمضان، لأنه تغل فيه الشياطين، وربما تجد من يقتل فيه ويسرق فهذا من النفس، فإذا مالت إلى المعصية فذكرها بعذاب الله، والقطيعة عن الله بسببه، والعمل المسموم يترك مع العلم بحلاوته لما فيه من وجود الأذى، لقوله ﷺ (الدنيا

---

(١) النكبات: المصائب.

(٢) تنكب: تَعدلُ وتتنحَّى.

(٣) يقول ابن الجوزي في كتابه صيد الخاطر: ١/ ١٨٥، ٢/ ٢٧٢ (لا ينال لذة المعاصي إلا دائم الغفلة، فأما المؤمن اليقظان فإنه لا يلتذ بها لأنه عند التذاذه يقف بازائه علمُه بتحريمها، وحذرُه من عقوبتها، فإن قويت معرفته رأى بعين علمه قرب الناهي – وهو الله – فيتنغص عيشه في حال التذاذه.
فأف للذنوب ما أقبح آثارها وأسوأ أخبارها ولا كانت شهوة تنال إلا بمقدار قوة الغفلة (رسالة المسترشدين للمحاسبي) تحقيق عبد الفتاح أبو غدة ص ١٥٦ – ١٥٧.

(٤) الأعراف: ٢٣

(٥) تحطب: توقعك في الفتن والمعاصي.

حلوة خضرة)[1] ويروى أيضا: (جيفة قذرة) حلوة خضرة عند أهل الغفلة، وجيفة قذرة عند العقلاء، حلوة خضرة عند النفوس، جيفة قذرة عند مراثي القلوب، حلوة خضرة للتحذير، وجيفة قذرة للتنفير، فلا تخدعنكم بحلاوتها.

إذا قيل لك: من المؤمن؟ فقل: الذي اطلع على عيب نفسه، ولم ينسب أحدًا من العباد إلى عيب، وإذا قيل لك: من المخذول؟ فقل: الذي ينسب العباد إلى العيب ويبرئ نفسه منه، ومما تمادى عليه أهل الزمان مباسطتهم ومؤانستهم للعاصين ولو أنهم عبسوا في وجوههم لكان ذلك زاجرًا لهم عن المعصية[2] .

لو فتح لك باب الكمال لما رجعت إلى الرذائل، أرأيت من فتح له باب القصور فهل يرجع إلى المزابل[3]؟ لو فتح لك باب الأنس بينك وبينه ما طلبت من تأنس به، لو اختارك لربوبيته ما قطعك عنه، لو كرت عليه مارماك لغيره، إذ عزل عنك محبة مخلوق فافرح؛ فهذا من عنايته بك، ولا تكون معصية إلا والذل معها، أفتعصيه ويعزك؟، كلا فقد ربط العز مع الطاعة، والذل مع المعصية، فصار في طاعته نور وعز وكشف وحجاب، وضدها معصية ظلمة وذل وحجاب بينك وبينه، ولكن ما منعك من الشهود إلى عدم وقوفك مع الحدود، واشتغالك بهذا الوجود.[4]

---

(١) رواه أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ (إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها لينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت في النساء) [مسلم الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار].

(٢) عن أبي عبيدة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (إن بني إسرائيل لما وقع فيهم النقص كان الرجل يرى أخاه على الذنب فينهاه عنه، فإذا كان الغد لم يمنعه ما رأى منه أن يكون أكيله وشريبه وخليطه فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ونزل فيهم القرآن فقال: (لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ) حتى بلغ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فَاسِقُونَ) ابن ماجه جزء ٢ ص ١٣٢٧ و ١٣٢٨

(٣) مكان القمامة.

(٤) (وللمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة المضرة بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة: ما لا يعلمه إلا الله. منها حرمان العلم والرزق، وحصول وحشة بين العاصي وبين الله ، وبينه وبين الخلق، وتعسير أموره، وظلمة القلب والوجه والقبر، ووهن القلب والبدن، وحرمان الطاعة، ومحق العمر، وأنها تزرع أمثالها ويولد بعضها بعضا، وتضعف إرادة القلب وإنابته إلى الله، ويزول بها عن القلب استقباح الذنوب.

وهي سبب لهوان العبد على الله، وتلحق ضرره غيره من الآدميين والحيوانات، وتورث الذل، وتفسد العقل، ويطبع على قلب صاحبها، وتدخله تحت لعنة رسول الله ﷺ وتحرمه الدخول في أدعيته ﷺ وأدعية

إذا عصى ولدك فأدبه بالشرع ولا تقطعه بل قابله بالعبوسة ليكف عن المعصية، وأكثر ما يدخل على المؤمن الدخْل[1] إذا كان عاصيًا، فإما أن يفضحوه، وإما أن يستهزئوا به، فإذا فعلوا ذلك فقد أخطأوا الطريق، إذا عصى المؤمن فقد وقع في ورطة عظيمة ، وطريقه أن تفعل معه كما فعلت مع ولدك عند عصيانه، تعرض عنه في الظاهر، وتكون له راحمًا في الباطن، وتطلب له الدعاء بالغيب.[2]

كفى بك جهلاً أن تحسد[3] أهل الدنيا على ما أعطوا وتشغل قلبك بما عندهم، فتكون أجهل منهم، لأنهم اشتغلوا بما أعطوا، واشتغلت أنت بما لم تعط، ترمد عيناك فتعالجها، وما سبب ذلك إلا أنك ذقت بها لذة الدنيا فتعالجها حتى لا يفوتك النظر إلى مستحسناتها، وترمد بصيرتك أربعين سنة فلا تعالجها. واعلم أن عمرًا أُضيع أوله حَرِيٌّ أن تحفظ آخره، كامرأة كان لها عشرة أولاد مات منهم تسعة وبقي واحد أليست ترى وجدها[4] على ذلك الواحد، وأنت قد ضيعت أكثر عمرك فاحفظ بقيته، وهي صبابة[5] يسيرة والله ما عمرك من أول يوم ولدت بل عمرك من أول يوم عرفت الله تعالى.

شتان بين أهل السعادة وأهل الشقاوة، فأهل السعادة إذا رأوا إنسانًا على معصيته أنكروا عليه في الظاهر، ودعوا له في الباطن، وأهل الشقاوة ينكرون عليه تشفيا فيه، وربما تلثموا عليه عرضه، فالمؤمن من كان ناصحًا لأخيه في الخلوة[6] ساترًا له في الجلوة[7]، وأهل الشقاوة بالعكس إذا رأوا إنسانًا على معصية أغلقوا

الملائكة لمن امتثل أمر الله واتبع كتاب الله وسنة رسوله). (الفوائد لابن القيم نقلا عن رسالة المسترشدين للمحاسبي تحقيق عبد الفتاح أبو غدة).

(١) الدخل: بسكون الخاء العيب والريبة وبفتحها المكر والخديعة.

(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى النبي ﷺ بسكران فأمر بضربه، فمنا من يضربه بيده ومنا من يضربه بنعله ومنا من يضربه بثوبه، فلما انصرف قال رجل: ماله أخزاه الله، فقال رسول الله ﷺ: لا تكونوا عون الشيطان على أخيكم (صحيح البخاري كتاب الحدود).

(٣) الحسد: أن تتمنى زوال نعمة الغير.

(٤) الوجد: الحب.

(٥) الصُبَابة: بقية الماء في الإناء.

(٦) الخلوة: مكان الانفراد بالنفس أوبغيرها، بمعنى أن المؤمن ينصح أخاه في السر لا في العلن.

(٧) الجلوة: الظاهر، بمعنى أن المؤمن لا ينصح المؤمن على ملأ من الناس فيفضحه.

عليه الباب وفضحوه فيها، هؤلاء لا تنور بصائرهم وهم عند الله مبعدون، وإذا أردت أن تختبر عقل الرجل فانظر إليه إذا ذكرت له شخصًا، فإن وجدته يطوف على خل سوء حتى يقول لك: خلنا منه ذاك فعل كذا وكذا، فاعلم أن باطنه خراب وليس له معرفة، وإذا رأيته يذكره بخير أو يذكر له ما يوصف بالذم ويحمله على محمل حسن ويقول لعله سها أو له عذر أو ما أشبه ذلك، فاعلم أن باطنه معمور، فإن المؤمن يعمل على سلامة عرض أخيه المسلم.

من قارب فراغ عمره ويريد أن يستدرك ما فاته فليذكر بالأذكار الجامعة، فإنه إذا فعل ذلك صار العمر القصير طويلا، كقوله: سبحان الله العظيم وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته،[1] وكذلك من فاته كثرة الصيام والقيام أن يشغل نفسه بالصلاة على رسول الله ﷺ فإنك إن فعلت في جميع عمرك كل طاعة ثم صلى الله عليك صلاة واحدة رجحت تلك الصلاة الواحدة على كل ما عملته في عمرك كله من جميع الطاعات، لأنك تصلى على قدر وسعك وهو يصلى حسب ربوبيته، هذا إذا كانت صلاة واحدة فكيف إذا صلى عليك عشرا بكل صلاة كما جاء في الحديث الصحيح، فما أحسن العيش إذا أطعت الله فيه بذكر الله تعالى والصلاة على رسول الله ﷺ يروى أنه (ما من صيد يصاد ولا شجرة تقطع إلا بغفلتها عن ذكر الله تعالى) لأن السارق لا يسرق بيتًا وأهله أيقاظ، بل على غفلة أو نوم.

من علم قرب رحيله أسرع في تحصيل الزاد، ومن علم أن إحسان غيره لا ينفعه جد في الإحسان، ومن أخرج ولم يحسب خسر ولم يدر، ومن وكل وكيلا واطلع على خيانته عزله، كذلك نفسك قد اطلعت على خيانتها فاعزلها، وضيق عليها المسالك، إذا رأيتك فيك الإعراض والشهوة والغفلة فهذا وصفك، وإذا رأيتك فيك الإنابة والخشية والزهد فهذا من صنائع الله، مثال ذلك إذا رأيت ببلدك الحلفاء والشوك والعوسج فهذا نبات أرض بلدك، وإذا رأيت بها العود الرطب والمسك

---

(١) عن جويرية أم المؤمنين رضي الله عنها أن النبي ﷺ خرج بكرة حين صلى الصبح وهي في مسجدها ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة، فقال: (ما زلت اليوم على الحال التي فارقتك عليها قالت نعم فقال النبي ﷺ لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله العظيم وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته) رواه مسلم.

والعنبر، فاعلم أنه مجلوب من صنائع الله ليس من نبات أرضك، فالمسك[1] من غزلان عراقها، والعنبر[2] من بحر هندها.

مثال الإيمان معك إذا عصيت الله تعالى كالشمس المكسوفة أو كالسراج إذا غطيته بصحفة، هو موجود ولكن يمنع نوره الغطاء، ثم إنك تحضر المجلس في المسجد في الجامع ليتوفر عقلك وإن كان عمرك قليلاً يصير كثير حصول الإيمان والخشوع والخضوع والخشية والتدبر والتذكر ونحوها، فلو عرفت الإيمان ما قاربت العصيان، فلا غريم أمطل من النفس، ولا عدو أعظم من الشيطان، ولا معارض أقوى من الهوى، ولا يدفع المدد الهابط مثل الكبر؛ لأن الغيث لا يقر إلا على الأرض المنخفضة لا فوق رءوس الجبال، فكذلك قلوب المتكبرين تنتقل عنها الرحمة وتنزل إلى قلوب المتواضعين، والمراد بالمتكبرين من يرد الحق لا من يكون ثوبه حسنًا[3] ولكن الكبر بطر الحق، يعني دفعه واحتقار الناس، ولا تعتقد أن الكبر لا يكون إلا في وزير أو صاحب دنيا، بل قد يكون فيمن لا يملك عشاء ليلة وهو يفسد ولا يصلح لأنه تكبر على خلق الله تعالى، ولا تعتقد المنكوب من كان في الأسر أو في السجن، بل المنكوب من عصى الله وأدخل في هذه المملكة الطاهرة نجاسة المعصية.

كثير من أنفق الدنانير والدراهم، ولكن من أنفق الروح قليل، الأحمق من مات ولده وجعل يبكي عليه على ما فاته من الله عز وجل فكأنه يقول بلسان حاله أنا أبكي على ما كان يشغلني عن ربي، بل كان ينبغي له الفرح بذلك ويقبل على مولاه لأنه أخذ منه من كان يشغله عنه، وقبيح بك أن تشيب وأنت طفل العقل صغيره ولا تفهم مراد الله منك، فإن كنت عاقلاً فابك على نفسك قبل أن يبكى عليك، فإن الولد والزوجة والخادم والصديق لا يبكون عليك إذا مت، بل يبكون على ما فاتهم منك،

---

(١) المسك: يستخرج من غدة في بطن الغزال.

(٢) العنبر: مادة تفرزها أنواع من الحيتان البحرية.

(٣) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنًا قال: إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس) رواه مسلم نقلا عن رياض الصالحين المجلد الأول ص ٨٩٧

فسابقهم أنت بالبكاء وقل: يحق لي أن أبكي على فوات حظي من ربي قبل أن يبكوا علي.

كفى بك جهلاً أن يعاملك مولاك بالوفاء وأنت تعامله بالجفاء.

ليس الرجل من صاح بين الناس في المجلس، إنما الرجل من صاح على نفسه وردها إلى الله تعالى.

من عال همّ الدنيا وترك همّ الآخرة كان كمن جاءه أسد يفترسه ثم قرصه برغوث فاشتغل به عن الأسد، فإن من غفل عن الله تعالى اشتغل بالحقير، ومن لم يغفل عنه لم يشغل إلا به، فأحسن أحوالك أن تفوتك الدنيا لتحصيل الآخرة، يا طالما فاتتك الآخرة لتحصيل الدنيا.

ما أقبح الخوف بالجندي. ما أقبح اللحن بالنحوى، وما أقبح طلب الدنيا لمن يظهر الزهد فيها. ليس الرجل من يريك لفظه إنما الرجل من يريك لحظه[1] (عن الشيخ) أبي العباس المرسي رضي الله عنه أنه قال: إذا كانت السلحفاة تربي أفراخها بالنظر، كذلك الشيخ يربي مريديه بالنظر لأن السلحفاة تبيض في البر وتتوجه إلى جانب النهر وتنظر إلى بيضها فيربيهم الله لها بنظرها إليهم.

إياك أن تخرج من هذه الدار وما[2] ذقت حلاوة حبه في المآكل والمشارب؛ لأنه يشاركك فيها الكافر والدابة، بل شارك الملائكة في حلاوة الذكر والجمع على الله تعالى، لأن الأرواح لا تحتمل رشاش[3] النفوس، فإذا انغمست في جيفة الدنيا لا تصلح المحاضرة، لأن حضرة الله تعالى لا يدخلها المتلطخون بنجاسة المعصية، وتب إلى الله وارجع إليه بالإنابة والذكر، ومن أدام قرع الباب يفتح له، ولولا الملاطفة ما قلنا لك ذلك؛ لأنه كما قالت رابعة العدوية رضي الله عنها متى أغلق الباب حتى يفتح، ولكن يا هذا باب يوصلك إلى قربه، إياك وذهول القلب عن

---

(١) اللَحْظ: في اللغة من لحظ، أى النظر بمؤخرة العين، واللحاظ بالفتح مؤخر العين، وبكسر العين مصدر لاحظه أى رعاه، ومعنى العبارة أن الشيخ يربي أتباعه ومريديه بمجرد النظر لا بالقول فقط.

(٢) ما: بمعنى الذى، أى إياك أن يكون همك في الدنيا المأكل والمشرب وبذلك تكون مثل الكافر والحيوان في مشاركتك لهم في التمتع بهذه النعم، إنما شارك الملائكة الذين خلقوا للعبادة والذكر والاجتماع على ذكر الله.

(٣) الرُشَاش: ما ترشش من الدمع والماء.

وحدانية الله تعالى، فأول درجات الذاكرين استحضار وحدانية الله، وما ذكره الذاكرون وفتح عليهم إلا باستحضارهم ذلك، وما طردوا إلا بذكرهم مع غلبة الذهول عليهم، وتستعين على ذلك بقمع الشهوتين البطن والفرج ولا يضادك في الله إلا نفسك[1] وما أكثر تودك للخلق وما أقل تودك للحق: لو فتح لك باب التودد مع الله لرأيت العجائب، ركعتان في جوف الليل تودد، عيادتك للمرضى تودد، صلاتك على الجنائز تودد، الصدقة على المساكين تودد، إعانتك لأخيك المسلم تودد، إماطتك الأذى عن الطريق تودد، ولكن السيف المطروح يحتاج إلى ساعد ولا عبادة أنفع لك من الذكر لأنه يمكن الشيخ الكبير والمريض الذي لا يستطيع القيام والركوع والسجود.

واعلم أن العلماء والحكماء يعرّفونك كيف تدخل إلى الله تعالى هل رأيت مملوكًا أول ما يشترى يصلح للخدمة، بل يعطي لمن يربيه ويعلمه الأدب، فإن صلح وعرف الأدب قدمه للملك، كذلك الأولياء[2] رضي الله عنهم يصحبهم المريدون حتى يزجوهم إلى الحضرة، كالعوّام إذا أراد الصبي العوم يحاذيه إلى أن يصلح للعوم وحده، فإذا صلح زجه في اللجة وتركه.

إياك أن تعتقد أنه لا يتوسل بالأنبياء والأولياء والصالحين فإنهم وسيلة جعلها الله إليه، لأن كل كرمة للولي هي شهادة بصدق النبي، لأنها جرت على أيدي الأولياء، مثل خرق العادات، والمشي على الماء، والطيران في الهواء، وأخبار المغيبات، ونبع الماء، ونحو ذلك، لأنهم لم يعطوا ذلك إلا لأجلهم.

---

(١) يعدد ابن عطاء الله أنواع القربات التي يتقرب بها العبد إلى ربه مثل قيام الليل، وعيادة المرضى، وصلاة الجنازة، والصدقة، وإعانة المسلمين، وإماطة الأذى عن الطريق، ولا يقوّى المسلم على فعل هذه القربات إلا ذكر الله تعالى.

(٢) يقول الله تعالى: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ روى سعيد بن جبير أن رسول الله ﷺ سئل: من أولياء الله؟ فقال: (الذين يذكر الله برؤيتهم). وقال عمر بن الخطاب في هذه الآية: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن من عباد الله عبادًا ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله تعالى" قيل يا رسول الله خبرنا من هم وما أعمالهم فلعلنا نحبهم قال: "هم قوم تحابوا في الله على غير أرحام بينهم ولا أموال بينهم ولا أموال يتعاطون بها فوالله إن وجوههم لنور وإنهم على منابر من نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس ثم قرأ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون". القرطبي جـ ٨ ص ٢٢٨.

عن الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله تعالى عنه أنه قال: كلْ نفسك وزنْها بالصلاة فإن انتهت عن الحظوظ، فاعلم أنك سعدت، وإلا فابك على نفسك إذا جررت رجلك إلى الصلاة جرًا، فهل رأيت حبيبًا لا يريد لقاء حبيبه، قال الله تعالى ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾[1] فمن أراد أن يعرف حقيقته عند الله وينظر حاله مع الله فلينظر إلى صلاته، إما بالسكون والخشوع، أو بالغفلة والعجلة، فإن لم تكن بالوصفين السابقين، فاحث التراب على رأسك، فإن من جالس صاحب المسك عبق عليه من ريحه، فإن الصلاة مجالسة الله تعالى، فإذا جالسته ولم يحصل لك منه شيء دل ذلك على مرض قلبك، وهو إما كبر أو عجب أو عدم أدب، قال الله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾[2] فلا ينبغي لمن صلى أن يسرع الخروج، بل يذكر الله تعالى ويستغفره من تقصيره فيها، فرب صلاة لا تصلح للقبول، فإن استغفرت الله بعدها قبلت، كان النبي ﷺ إذا صلى استغفر الله ثلاث مرات.

كم فيك من الكوامن[3] فإذا أوردت عليها الواردات أظهرتها، وأعظمها ذنبًا الشك في الله، والشك في الرزق شك في الرازق.

الدنيا أحقر من أن يعال همها صغرت الهمم فعالت صغيرا، فلو كنت كبيرًا لعلت الكبير، من عال الهم الصغير وترك الهم الكبير استسفلنا عقله، قم أنت بما يلزمك من وظائف العبودية، وهو يقوم لك بما التزمه أيرْزُقُ الجعل[4] والوزغ[5] وبنات وردان[6] وينسى أن يرزقك، قال الله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا

---

(١) العنكبوت: ٤٥

(٢) الأعراف: ١٤٦

(٣) الكوامن: الأشياء المختفية.
أوردت: أحضرت.

(٤) الجُعَل: بضم الجيم وفتح العين: حشرة سوداء من نوع الخنافس.

(٥) الوزغ: دويبة في شكل السحلية سامة.

(٦) نوع من الحشرات الصغيرة.

لا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾[1].

كان المتقدمون من السلف – رضي الله عنهم – يسألون الشخص عن حاله ليستثيروا[2] منه الشكر، والناس اليوم ينبغي أن لا يسألوا، فإنك إن سألت تستثير الشكوى.

عن بعض النباشين أنه تاب إلى الله تعالى، فقال يومًا لشيخه: يا سيدي نبشت ألف قبر فوجدت وجوههم محولة عن القبلة، فقال الشيخ: يا ولدي ذاك من شكهم في رزقهم.

يا عبد الله إذا طلبت من الله فاطلب منه أن يصلحك من كل الوجوه، وأن يصلحك بالرضا عنه في تدبيره لك، ثم إنك عند شرودك[3] وطلب منك أن تعبر عليه ففررت منه، فإن القرار يكون بالأفعال والأحوال والهمم فإذا كنت في صلاتك تسهو، وفي صومك تلغو، وفي لطف الله تشكو، فأنت شارد.

عن الشيخ أبي الحسن الشاذلي – رضي الله عنه – أنه قال بقيت مرة في البادية ثلاثة أيام لم يصح لي شيء فجاز عليّ بعض النصارى فرأوني متكئًا، فقالوا هذا قسيس من المسلمين، فوضعوا عند رأسي شيئًا من الطعام وانصرفوا، فقلت: يا للعجب كيف رزقت على أيدي الأعداء ولم أرزق على أيدي الأحياء، فقيل: ليس الرجل من يرزق على أيدي الأحياء إنما الرجل من يرزق على أيدي أعدائه، يا هذا اجعل نفسك كدابتك، كلما عدلت عن الطريق ضربتها فرجعت إلى الطريق، ولو فعلت مع نفسك ما تفعل بجبتك كلما توسخت غسلتها وكلما تقطع منها شيء رقعته وجددته كانت لك السعادة، فرب رجل ابيضت لحيته وما جلس مع الله جلسة يحاسب نفسه فيها.

---

(١) طه: ١٣٢

يقول ﷺ عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "من كانت الآخرة همّه جعل الله غناه في قلبه وجمع له شمله وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همّه جعل الله فقره بين عينيه وفرق عليه شمله ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له" رواه الترمذي نقلا عن الترغيب والترهيب للمنذري جـ٤، ص ١٢١.

(٢) ليجعلوه يشكر الله ويستثيرونه حتى قلبه ولسانه بالشكر.

(٣) الشرود: البعد عن الله.

عن الشيخ مكين الدين الأسمر – رضي الله عنه – أنه قال: كنت في البداية أحاسب نفسي عند المساء فأقول تكلمت اليوم بكذا وكذا، فأجد ثلاث كلمات أو أربعًا وكان عنده يومًا شيخ عمره نحو تسعين سنة، فقال له: يا سيدى أشكو إليك كثرة الذنوب فقال له الشيخ: هذا شيء لا نعرفه وما أعرف أني عملت ذنبًا قط، كما أن للدنيا أبناء من استند إليهم كفوه، فكذلك إن للآخرة أبناء من استند إليهم أغنوه[1] ولا تقل طلبنا لم نجد فلو طلبت بصدق لوجدت وسبب عدم وجدانك عدم استعدادك، فإن العروس لا تجلى[2] على فاجر، فلو طلبت رؤية العروس لتركت الفجور، ولو تركت الفجور لرأيت الأولياء[3] والأولياء كثيرون لا ينقص عددهم ولا مددهم ولو نقص واحد منهم لنقص نور النبوة، إذا أحببت حبيبًا لن تصل إليه حتى تكون أهلاً للوصول إليه وذلك حتى تتطهر مما أنت فيه من الرذائل.

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي – رضي الله عنه – أولياء الله عرائس والعرائس لا يراها المجرمون.

إذا ثقلت عليك الطاعة والعبادة ولم تجد لها حلاوة في قلبك ونخف عليك بالمعصية تجد لها حلاوة، فاعلم أنك لم تصدق في توبتك فإن لو صح الأصل لصح الفرع، ليتك لو أطعت مولاك كما يطيعك خادمك فإنك تحبه ناهضًا في خدمتك دائمًا وأنت تحب الطاعة وتطلب أن تفرغ منها مسرعًا كأنك تنفر بالمناقير، فياليت بصرًا نظرت به محاسن الغير عوضت عنه العمى.

كم حصل لك الهوان بالوقوف على أبواب المخلوقين وكم أهانوك وأنت لا ترجع إلى مولاك.

عن الشيخ مكين الدين الأسمر – رضي الله عنه – أنه قال: رأيت في المنام حورية وهي تقول: أنا لك وأنت لي قال: فبقيت نحو شهرين أو ثلاثة لا أستطيع لمخلوق كلامًا إلا تقيأت لطيب كلامها. كفاك من الإدبار أن تفتح عينيك في هذه الدار قال الله تعالى: ﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ

---

(١) يرشدونك إلى الخير والعمل الصالح الذي ينفعك ويغنيك في الآخرة.

(٢) العروس تعرض على زوجها مَجْلُوَّة متزينة.

(٣) ولا يشاهد الأولياء إلا الصالحون، ولا يراهم أهل المعاصي كما يقول القائل: إن الطيور على أشكالها تقع

فِيهِ﴾[1] قدر لك الصحة والمرض والغنى والفقر والفرح والحزن حتى تعرفه بأوصافه. من صحبك يوما أو يومين ولم ير منك نفعًا تركك وصحب غيرك وأنت تصحب نفسك أربعين سنة ولم تر منها فقل لها: ارجعي يا نفس إلى رضا ربك طالما وافقتك في الشهوات فتبدلي بعد البطالة بالاشتغال بالله وبعد الكلام بالصمت، وبعد الوقوف بالحارات الجلوس بالخلوة وبعد الأنس بالمخلوقين الأنس بالخالق، وبعد قرناء السوء معاشرة أهل الخير والصلاح اجعل أحوالك على ضد ما كنت عليه اجعل بدل السهر في معصية الله السهر في طاعة الله، وبعد الإقبال على أهل الدنيا الإعراض عنهم والإقبال على الله، وبعد الإصغاء لكلامهم الإصغاء والاستماع لكلام الله عز وجل وذكره، وبعد الأكل بالشره والشهوة الأكل القليل الذي يعينك على الطاعة قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[2] إنما عصى الله من لم يعرف عقابه، وإنما ترك طاعة الله من لم يعرف ثوابه فلو اطلعوا على عذاب النار لما غفلوا ولو اطلعوا على ما أعد الله لأهل الجنة لما تركوها طرفة عين.

إذا صحبت أبناء الدنيا جذبوك إليها، وإذا صحبت أبناء الآخرة جذبوك إلى الله، قال رسول الله ﷺ : (يحشر المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل) كما تختار لنفسك المآكل الطيبة التي لا ضرر فيها والزوجة الحسنة لتتزوجها، فكذلك لا يوادد إلا من يعرفك الطريق إلى الله سبحانه وتعالى.

واعلم أن لك ثلاثة أخلاء: أحدهما: المال تفقده عند الموت. والثاني: العيال يتركونك عند القبر. والثالث: عملك لا يفارقك فاصحب من يدخل معك قبرك وتأنس به؛ فالعاقل من عقل عن الله أوامره ونواهيه، مثالك الجُعَل[3] يعيش في الروث والعذرة، وإذا قرب إليه الورد مات من رائحته فمن الناس من هو جعلي الهمة فراشيٌ[4] العقل، فإن الفراش لا يزال يرمي نفسه في نار المعصية عمدًا، فلو أردت السير إلى الله تعالى شددت المحزم، فأين الهمة، إنما تأكل لتعيش وتعيش

---

(١) طه: ١٣١

(٢) العنكبوت: ٦٩

(٣) الجُعَل: حيوان مثل الخُنفساء يعيش في الأماكن الرطبة القذرة.

(٤) همته متدنية كالجعل الذي يعيش في الأماكن القذرة وعقله كالفراش الذي يلقي بنفسه في النار.

لتأكل[1] فإن فعلت ذلك فمثالك على المداود[2] كثير ومثلك في الدواب كثير فإن فعلت ذلك فإن أسبق الخيل ما ضمر تقول: هذه الليلة أقلل الأكل فإذا حضر الطعام كأنه حبيب مفارق، ومن لم يرد الله صلاحه تعبت فيه الأقاويل، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾[3]. ما أهربك من الهوان وما أوقعك فيه تهين نفسك وتلقيها في مواطن الردى، قال بعضهم كن مع الله كالطفل مع أمه كلما دفعته أمه ترامى عليها لا يعرف غيرها، يا عبد الله تنتخب لنفسك الطيبات، بل تنتخب لدابتك العلف وتعامل الله بالمجازفة، وربما قلبت عشرين بطيخة حتى تصلح لك واحدة لدهليز مرحاض[4] وتقعد عند الأكل متربعًا وربما طولت في الأكل وإذا جئت إلى الصلاة نقرتها نقر الديك، والوساوس والخواطر الرديئة تأتيك في صلاتك، مثال من هذه حالته كمن نصب نفسه للهدف وقعد في الرمح والسهام تقصده من كل جانب أفما هذا أحمق، مثالك إذا سمعت الحكمة ولم تعمل بها كمثل الذي يلبس الدرع[5] ولا يقاتل، ألا فقد حصل النداء على سلعتنا فهل من مشتر؟!

قيمتك قيمة ما أنت مشغول به فإن اشتغلت في الدنيا فلا قيمة لك، لأن الدنيا كالجيفة لا قيمة لها، أفضل ما يطلب العبد من الله أن يكون مستقيمًا معه، قال الله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[6] فاطلب منه الهداية والاستقامة وهو أن تكون مع الله في كل حال بالذي يرضاه لك وهو ما جاء به النبي ﷺ عن الله – سبحانه وتعالى – من بذل لله صرفٍ[7] الود سقاه الله صرف الكرم، مثال السالك كمن يحفر على الماء قليلاً قليلاً حتى يجد الثقب فينبع له الماء بعد الطلب، ومثال المجذوب كمن أراد الماء فأمطرت له سحابة فأخذ منها ما يحتاج إليه من غير تعب.

---

(١) الناس صنفان صنف يأكل ليعيش، وصنف يعيش ليأكل.
هجا أحد الشعراء الزبرقان بن بدر فقال له:
دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

(٢) المداود: الأوعية التي يوضع فيها الطعام للحيوانات.

(٣) المائدة: ٤١

(٤) من كان همه ما يدخل بطنه كانت قيمته ما يخرج منها.

(٥) الدرع: قميص من حلقات من الحديد متشابكة تلبس في الحروب وقاية من ضربات السلاح.

(٦) الفاتحة: ٦

(٧) الصرف: الخالص من الشوائب، وصرف الود الخالص من الرياء.

إذا أعطيت نفسك كل ما تشتهي وتطلب من الشهوات كنت كمن في بيته حية يسمنها كل يوم حتى تقتله، ولو جعل فيك الروح من غير نفس لأطعت وما عصيت، ولو جعل فيه النفس من غير روح لعصيت وما أطعت فلذلك جعل فيك القلب والروح والنفس والهوى كالنحلة جعل فيها اللسعة والعسل، فلذلك تتلون فالعسل ببره واللسع بقهره، فأراد الله أن يكسر دعوة النفس بوجود القلب ودعوة القلب بوجود النفس، يا عبد الله طلب منك أن تكون له عبدًا فأبيت أن تكون إلا ضدًا، إقبالك على الله إفرادك له بالعبادة فكيف يرضى لك أن تعبد غيره فلو أتيتنا تطل العطاء منا ما أنصفتنا، فكيف ترضى إذا أقبلت على من سوانا، وقفت الدنيا في طريق الآخرة فصرفت الوصول إليها ووقفت الآخرة في طريق الحق فمنعت الوصول إليه، إن من لطف الله بك أن يكشف لك عن عيوب نفسك ويسترها عن الناس إذا أعطيت الدنيا ومنعت الشكر فيها فهي محنة في حقك: قال رسول الله ﷺ "قليل الدنيا يلهي عن طريق الآخرة" كان لبعضهم زوجة فقالت له يومًا لا أقدر على أن تغيب عني ولا أن تشتغل بغيري فنودي: إذا كانت هذه لا خالفة ولا موجدة وهي تحب أن تجمع قلبك فكيف لا أحب أن تجمع قلبك علي.

كنت مرة عند الشيخ أبي العباس المرسي - رضي الله تعالى عنه - فقلت في نفسي أشياء فقال الشيخ إن كانت النفس لك فاصنع بها ما شئت ولن تستطيع ذلك، ثم قال النفس المرأة كلما أكثرت خصامها أكثرت خصامك فسلمها إلى ربها يفعل بها ما يشاء فربما تعبت في تربيتها فلا تنقاد لك فالمسلم من أسلم نفسه إلى الله بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾[1] إذا أحبك مولاك أعرض عنك أصحابك حتى لا تشتغل بهم عنه وقطع علائقك من المخلوقين حتى ترجع إليه.

كم تطلب نفسك إلى الطاعة وهي تتقاعد إنما تحتاج إلى معالجة نفسك في الابتداء فإذا ذاقت المنة جاءت اختيارًا فالحلاوة التي كانت في المعصية ترجع تجدها في الطاعة.

---

(١) التوبة: ١١١

مثال الإيمان في القلب كالشجرة الخضراء، فإذا كثرت عليها المعاصي يبست وفرغ إمدادها فمن أحب القيام بالواجبات فليترك المحرمات ومن ترك المكروهات أعين على تحصيل الخيرات، ومن ترك المباحات وسع عليه توسعة لا يسعها عقله وأباح له حضرته[1] ولكن ما أهون العبادة التي فيها هوى نفسك عليك وما أثقل ما ليس فيه هوى.

مثاله أن نحج تنفلاً فإن قيل لك: تصدق بذلك، شق عليك؛ لأن أمر الحج يرى فللنفس فيه حظ والصدقة تطوى وتنسى وكذلك درسك العلم لغير الله فإنك تدرس الليل كله ونفسك طيبة بذلك، فإذا قيل لك صل بالليل ركعتين، شق عليك؛ لأن الركعتين بينك وبين الله ليس فيهما للنفس حظ والقراءة والدرس للنفس فيها حظ مشاركة للناس فلأجل ذلك خفف عليها.

قال بعضهم: تاقت نفسي إلى الزواج فرأيت المحراب قد انشق وخرج منه نعل من ذهب مكلل باللؤلؤ، فقيل إلي: هذا نعلها فكيف وجهها؟ فانقطعت شهوة النكاح من قلبي.

من هيئت له المنازل[2] لم يرض له بالقعود على المزابل[3] فاعمل الأعمال الصالحات بينك وبين الله سرًا ولا تطلع عليه أهلك واجعله مدخرًا عند الله تجده يوم القيامة فإن النفس لها تمنه بذكر العمل. صام بعضهم أربعين سنة ولم يعلم به أهله. لا تتفق أنفاسك في غير طاعة الله ولا تنظر إلى صغير النفس بل انظر إلى مقداره وإلى ما يعطي الله العبد فالأنفاس جواهر، وهل رأيت أحدًا يرمي جوهرة على مزبلة؟ أفتصلح ظاهرك وتفسد باطنك؟ فمثالك كالمجزوم ليس ثيابًا جديدة ويخرج منه في الباطن القبيح والصديد فأنت تصلح ما ينظر إليه الناس ولا تصلح قلبك الذي هو لربك. الحكمة كالقيد إن ثبت بها نفسك امتنعت وإن رميتها تسيبت ويخاف عليك مثال ذلك كالمجنون في بيتك يخربه فإذا قيدته استرحت، وإذا طرحت

---

(١) يقول الشيخ أبو القاسم بن منصور القباري الإسكندراني: المباح عقبة بين البعد وبين المكروه، فمن استكثر من المباح تطرق إلى المكروه، والمكروه عقبة بين العبد وبين الحرام، فمن استكثر من المكروه تطرق إلى الحرام.

(٢) المنازل: جمع منزلة، والمنزلة المكانة.

(٣) المزابل: موضع القمامة.

القيد وخرجت فالضرر باق، يا أيها الشيخ قد أفنيت عمرك فاستدرك ما فاتك قد لبست البياض وهو الشيب والبياض لا يحمل الدنس.

مثال القلب كالمرآة ومثال النفس كالنفس كلما تنفست على المرآة تسودت: قلب الفاجر كمرآة العجوز التي ضعفت همتها أن تجلوها وتنظر فيها، وقلب العارف كمرآة العروس كل يوم تنظر فيها فلا تزال مصقولة.

همة الزاهدين في كثرة الأعمال وهمة العارفين في تصحيح الأحوال.

أربعة تعينك على جلاء قلبك: كثرة الذكر، ولزوم الصمت، والخلوة، وقلة المطعم والمشرب.

أهل الغفلة إذا أصبحوا يتفقدون أموالهم، وأهل الزهد والعبادة يتفقدون أحوالهم، وأهل المعرفة يتفقدون قلوبهم مع الله عز وجل.

ما من نفس يبديه الله تعالى فيك من طاعة أو مرض أو فاقة إلا وهو يريد أن يختبرك بذلك، ومن طلب الدنيا بطريق الآخرة كان كمن أخذ ملعقة ياقوت يغرف بها العذرة، أفما يعد هذا أحمقًا. لا نعتقد أن الناس فاتهم العلم، بل فاتهم التوفيق أكثر من العلم. أول ما ينبغي لك أن تبكي على عقلك فكما يقع القحط في الكلأ[1] يقع في عقول الرجال، وبالعقل عاش الناس مع الناس ومع الله تعالى، مع الناس بحسن الخلق، ومع الله باتباع مرضاته. إن منّ عليك بثلاثة فقد منّ عليك بالنعمة الكبرى:

الأولى: الوقوف على حدوده، والثانية: الوفاء بعهوده، والثالثة: الغرق في شهوده، وما سبب استغرابك لأحوال العارفين إلا استغراقك في القطيعة، ولو شاركتهم في الأسفار لشاركتهم في الأخبار، ولو شاركتهم في العنا لشاركتهم في الهنا، وما شأن نفسك وقت الرضا إلا كالبعير المعقول فإذا سيبته انطلق، قال رسول الله ﷺ (لقلب ابن آدم أشد تقلبًا من القِدْر على النار إلا غلت) فكم من كان في جمع مع الله أتته الفرقة في نفس واحد، وكم من بات في طاعة الله ما طلعت عليه الشمس حتى دخل في القطيعة، فالقلب بمثابة العين، والعين لا ترى بها كلها، بل بمقدار العدسة منها، كذلك القلب لا يراد منه اللحانية، بل اللطيفة التي أودعها الله

---

(١) الكلأ: العشب.

فيه وهي المدركة وجعل الله القلب معلقًا في الجانب الأيسر كالدلو إن هب عليه هوى الشهوة حركه وإن هب عليه خاطر للتقوى حركه، فتارة يغلب عليه خاطر الهوى وتارة يغلب عليه خاطر التقوى حتى يعرفك مرة منه ومرة قهره، فمرة يغلب عليه خاطر التقوى ليمدحك ومرة يغلب عليه خاطر الهوى ليذمك، فالقلب بمثابة السقف، فإذا أوقد في البيت نار صعد الدخان إلى السقف فسوده، فكذلك دخان الشهوة إذا نبت في البدن صعد دخانه إلى القلب فسوده.

إذا ظلمك القوي فارجع إلى القوي، ولا تخف منه فيسلك عليك، مثال من يشهد الضرر من المخلوقين كمن ضرب الكلب بحجر فأقبل الكلب على الحجر يعضه ولا يعرف أن الكلب ليس بفاعل فيكون هو والكلب سواء.

مثال من يشهد الإحسان من المخلوقين كالدابة إذا رأت سايسها بصبصت[1] ويدنو إليها مالكها فلا تلقي إليه بالا، فإن كنت عاقلاً فاشهد الأشياء من الله عز وجل ولا تشهدها من غيره، ليس التائه من تاه عن سبيل الهدى، تطلب العز من الناس ولا تطلبه من الله فمن طلبه من الناس فقد أخطأ الطريق ومن أخطأ الطريق لم يزده سيره إلا بعدًا فهذا التائه حقا: إذا قلت لا إله الله طالبك الله بها وبحقها وهو ألا تنسب الأشياء إلا إليه.

مثال القلب إذا سلمته إلى النفس كمن تعلق بغريق فغرق كل واحد منهما، ومثال النفس إذا سلمتها للقلب كمن أسلم نفسه إلى عوّام قوي فسلمها له، فلا تكن ممن سلم قلبه إلى نفسه فهل رأيت بصيرًا قاد نفسه إلى أعمى يقوده.

إن أمكنك أن تصبح وتمسى وما ظلمت أحدًا من العباد فأنت سعيد فإن لم تظلم نفسك فيما بينك وبين الله فقد تكلمت لك السعادة فأغلق عينيك وسد أذنيك وإياك وإياك وظلم العباد. ما مثالك في صغير عقلك وكونك لا تعلم ما عليك من الملابس إلا كالمولود تكسوه أمه أحسن الملابس وأفخرها وهو لا يشعر وربما دنسها ونجسها فتسرع إليه أمه وتكسوه أخرى لئلا يراه الناس كذلك وتغسل ما تنجس وهو لا يعلم ما فعل به لصغر عقله.

---

(١) بصبصت: حركت ذنبها.

عن الشيخ أبي الحسن الشاذلي – رضي الله عنه – أنه قال: قيل لي: يا علي طهر ثيابك من الدنس تحفظ بمدد الله في كل نفس فقلت وما ثيابي؟ فقيل لى إن الله كسا حلة المعرفة ثم حلة التوحيد ثم حلة المحبة ثم حلة الإيمان ثم حلة الإسلام، فمن عرف الله صغر لديه كل شيء، ومن أحب الله هان عليه كل شيء، ومن وحد الله لم يشرك به شيئًا، ومن آمن بالله أمن كل شيئ، ومن أسلم لله قلما يعصيه وإن عصاه اعتذر إليه وإن اعتذر إليه قبل عذره، قال فهمت من ذلك قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾(١).

يا من عاش وما عاش تخرج من الدنيا وما ذقت ألذ شيء فيها وهي مناجاة الحق سبحانه ومخاطبته لك فأنت ملقى جيفة بالليل فإن دفعت عنه فاستغث بالله وقل: يا ملائكة الله ويا رسول الله فاتتني الغنيمة التي نالوها من لذة المناجاة ووداد المصافاة.

إذا كان العبد معجبًا بطاعته متكبرًا على خلقه ممتلئًا عظمة يطلب من الخلق أن يوفوا حقوقه ولا يوفي حقوقهم فهذا يخشى عليه سوء الخاتمة والعياذ بالله، وإذا كان فعل معصية تراه باكيًا حزينًا منكسرًا ذليلاً يتطارح على أرجل الصالحين ويزورهم معترفًا بالتقصير، فهذا يرجى له حسن الخاتمة، إذا طلبت قارئًا وجدت ما لا يحصى، وإذا وجدت طبيبًا وجدت كثيرًا، وإذا طلبت فقيهًا وجدت مثل ذلك، وإن طلبت من يدلك على الله ويعرفك بعيوب نفسك لم تجد إلا قليلاً فإن ظفرت به فأمسكه بكلتا يديك.

إذا أردت أن تنصر فَكُنْ كُلُّكَ ذلة قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾(٢) إن أردت أن تعطى فَكُنْ كُلُّكَ فقرًا ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾(٣) تكون في وسط النهر وأنت عطشان تكون معه في الحضرة وأنت تطلب الاتصال كأن العباد لم يتواصلوا للآخرة إلا بكثرة المأكل والمشرب أو قيل لهم هذه توصلكم إلى الآخرة ولكن ما أرخص نفسك عليك، لولا هوانها عليك ما عرضتها لعذاب الله

---

(١) المدثر: ٤

(٢) آل عمران:١٢٣

(٣) التوبة:٦٠

تعالى وما أعلاها في طلب الدنيا وجمعها، والعجب كل العجب فيمن يسأل المنجم عن حاله ولا يسأل كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

إذا ضعفت عن العبادة فرقع عبادتك بالبكاء والتضرع، إذا قيل لك: من يبكي عليك فقل: عبد عوفي فأنفق عافيته في معصية الله.

إذا نمت على تخليط[1] رأيت التخليط في منامك، بل ينبغي لك أن تنام على طهارة وتوبة فيفاتح قلبك بنوره، ولكن من كان في نهاره لاغيا كان في ليله عن الله ساهيًا، إذا رأيت وليًا لله تعالى فلا يمنعك إجلاله من أن تقعد بين يديه متأدبًا وتتبرك به واعلم أن السماء والأرض لتتأدَّب مع الولي كما يتأدب معه بنو آدم، فمن فرح بالدنيا إذا جاءته فلقد ثبت حمقه وأحمق منه من إذا فاتته حزن عليها، فمثالك كمن جاءته حية لتدلغه ثم مضت وسلمه الله منها فحزن عليها أن لم تضره، من علامات الغفلة وصغر العقل أن تعول همًا هل يقع أو لا وتترك همًا لابد من وقوعه وتصبح تقول كيف يكون السفر غدًا وكيف يكون الحال في هذه السنة وألطاف الله تأتي من حيث لا تعلم والشك في الرزق شك في الرازق وما سرق السارق وما غصب الغاصب إلا رزقه فما دمت حيًا لا ينقص من رزقك شيئًا، كفى بك جهلاً أن تعول الهم الصغير وتترك الهم الكبير على هم هل تموت مسلمًا أو كافرًا على هم هل، أنت شقيٌ أو سعيد على هم النار الموصوفة بالأبدية التي لا انتهاء لها على هم أخذ الكتاب باليمين أو بالشمال هذا هو الهم الذي يعال. لا تعل هم لقمة تأكلها أو شربة تشربها أيستخدمك الملك ولا يطعمك؟ أتكون في دار الضيافة وتضيع، إن أحب ما يطاع الله به الثقة به، لأن تكون خاملاً في الدنيا خير لك من أن تكون خاملاً يوم القيامة، هذه صفاوة العمر وغربلته. يا من لا يأكل الحنطة إلا مغربلة لابد أن يغربل عملك فلا يبقى لك إلا ما أخلصت فيه وما عدا ذلك يرمى، وأكثر ما يخاف عليك مخالطة الناس ولا يكفيك أن تسمع بأذنيك، بل تشاركهم في الغيبة وهي تنقض الوضوء وتفطر الصائم كفى بك جهلاً أن تغار على زوجتك ولا تغار على إيمانك، كفى بك خيانة أن تغار عليها لأجل نفسك ولا تغار على قلبك لأجل ربك، إذا كنت تحفظ ما هو لك ألا تحفظ ما هو لربك.

---

(١) التخليط: يقال خلط في أمره: أفسد فيه.

إذا رأيت من يصبح مهمومًا لأجل الرزق فاعلم أنه بعيد من الله فإنه لو قال لك مخلوق لا تشتغل غدًا بسبب وأنا أعطيك خمسة دراهم وثقت به وهو مخلوق فقير أفما تكتفى بالغني الكريم الذي ضمن لك رزقك مع أجلك، أنشد إنسان:

إذا العشرون من شعبان ولت فواصـــل شـــرب ليلك بالنهار
ولا تشـــرب بـــأقداح صغار فقد ضاق الزمان عن الصغار

ومعناه عنده إذا مضت العشرون من شعبان فقد قرب رمضان يقطع علينا الشراب، ومعناه عند أهل الطريق إذا خلفت أربعين سنة وراء ظهرك فواصل العمل الصالح بالليل والنهار لأن الوقت قد قرب إلى لقاء الله عز وجل فليس عملك كعمل من كان شابًا ولم يضيع شبابه ونشاطه وأنت قد ضيعت شبابك ونشاطك هب أنك تريد الجد ولكن لا تساعدك القوى فاعمل على قدر حالك ورقع الباقي بالذكر فإنه لا شيء أسهل منه يمكنك في حال القيام والقعود والمرض والاضطجاع فهذا أسهل العبادات وهي التي قال فيها رسول الله ﷺ: (وليكن لسانك رطبًا بذكر الله) وأى دعاء أو ذكر سهل عليك فواظب عليه فإن مدده من الله عز وجل، فما ذكرته إلا ببره وما أعرضت عنه إلا بسطوته وقهره، فاعمل واجتهد فالغفلة في العمل خير من الغفلة عنه، تر حالك حال الزاهدين في الفضل؛ لأن الطالب لا ينقطع عن الأبواب، بل تجده واقفًا عليها، فمثاله كالثكلى التي مات ولدها أتراها تحضر الأعراس والأفراح والولائم، بل هي مشغولة بفقد ولدها، وكم يرسل لك المولى الصنائع وأنت عبد شرود، فمثالك كالطفل في المهد كلما حرك نام ولو أرسل لك الملك خلعة ما أصبحت إلا على بابه، فاغتنم أوقات الطاعات واصطبر عليها.

إن طلبت أن تعصيه فاطلب مكانًا لا يراك فيه أحد واطلب قوة من غيره تعصيه بها ولن يستطيع شيئًا من ذلك لأن الكل من نعمه، تأخذ نعمه وتعصيه بها، بل تفننت في المخالفات مرة بالغيبة ومرة بالنميمة ومرة بالنظر، وما بنيته في سبعين سنة تهدمه في نفس واحد.

يا هادم الطاعات ما سلط الله عليك الفاقة إلا لترفع حالتك إليه ولتتجمع عليه، فيما من يغرق نفسه في الشهوات والمعاصي ليتك أعطيتها ذلك في المباحات، فمن عاملته بالدنيا وعاملك بالمنن كيف لا تحبه. من عاملك بالكرم وعاملته باللؤم كيف

لا تحبه، ما أحد يصحبك فينفعك وكل من يصحبك لنفسه وإنما تحبك الزوجة لتجتني منك مطايب العيش والملابس، وكذلك الولد يقول أشد بك ظهري فإذا كبرت ولم تبق فيك قوة ولا بغية رفضوك. لو انقطعت عن الخلق لفتح لك باب الأنس به تعالى لأن أولياء الله قهروا أنفسهم بالخلوة والعزلة فسمعوا من الله وأنسوا به فإن أردت أن تستخرج مرآة قلبك من الأكدار فارفض ما رفضوا وهو الأنس بالخلق وأنس جرى لفلان واتفق لفلان لا تقعد على أبواب الحارات فمن استعد استمد فإذا هيأ لك الاستعداد فتح لك باب الاستمداد، ومن أحسن قرع الباب فتح له فرب طالب أساء قرب الباب لسوء أدبه ولم يفتح له، وأكثر ما أوتي العباد من قلة الصمت فلو تقربت إلى الله لسمعت مخاطبته على الدوام في سوقك وبيتك، ولكن من استيقظ شهد ومن نام لم تسمع أذنا قلبه ولم تشهد بصيرته ولكن الحجاب مرخي، ولو أن العباد لم يقبلوا إلا على الله ولم يجلسوا إلا بين يديه ولم يستفتوا غيره لقوله ﷺ: (استفت قلبك وإن أفتوك) لأن الخواطر الإلهية تأتي من الله تعالى فهي موافقة وربما أخطأ المفتي والقلب لا يخطئ وهذا مخصوص بالقلوب الطاهرة وإنما يستفتى عالم ولا علم لمن غفل عن الله تعالى.

كانوا رضي الله عنهم لا يدخلون في شيء بنفوسهم ولتكن من الله وبالله وإن المسافة بعدت بين الأولياء والصحابة فجعلت الكرامات جبرًا لمن فاتهم من قرب المتابعة التامة فإن من الناس من يقول إن الأولياء لهم الكرامات والصحابة لم يكن لهم ذلك بل كانت لهم الكرامات العظيمة بصحبتهم له ﷺ وأى كرامة أعظم منها، واعلم أن كل صلاة لا تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر لا تسمى صلاة لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾[1] وأنت تخرج من الصلاة ومن مناجاة الحق – سبحانه وتعالى – في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[2] ومناجاة الرسول ﷺ بقولك السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته وهذا في كل صلاة ثم تخرج إلى الذنوب بعد هذه النعم التي أنعم الله بها عليك.

---

(١) العنكبوت:٤٥

(٢) الفاتحة:٥

عن الشيخ أبي الحسن الشاذلي – رضي الله تعالى عنه – أنه كان يحضر عنده فقهاء الإسكندرية والقاضي فجاء أمره مختبرين للشيخ فتفرس فيهم وقايا فقهاء هل صليتم قط؟ فقالوا يا شيخ وهل يترك أحدنا الصلاة؟ فقال لهم قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً إِلاَّ الْمُصَلِّينَ﴾[1] فهل أنتم كذلك إذا مسكم الشر لا تجزعوا وإذا مسكم الخير لا تمنعوا؟ قال: فسكتوا جميعًا فقال لهم الشيخ: فما صليتم هذه الصلاة قط. إن تفضل عليك بالتوبة فمن فضله – سبحانه وتعالى – تبت إليه وإنك تذنب سبعين سنة فتتوب إليه في نفس واحد فيمحو ما عملته في تلك المدة. التائب من الذنب كمن لا ذنب له، فالمؤمن كلما ذكر ذنبه حزن وكلما ذكر طاعته فرح.

قال لقمان الحكيم: المؤمن له قلبان: يرجو بأحدهما ويخاف بالآخر يرجو قبول عمله ويخاف أن لا يقبل منه. لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا.

من أراد الجمع على الله فعليه بقيام أوامر الله. إذا اطلعت على زوجك بخيانة فإنك تغضب عليها فكذلك نفسك قد خانتك في عمرك وأجمع العقلاء على أن الزوجة إذا خانت لا يأويها زوجها بل يطلقها فطلق نفسك.

سئل رسول الله ﷺ (ما أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ فقال ﷺ: (تقوى الله وحسن الخلق) فقيل له: فما أكثر ما يدخل الناس النار؟ فقال ﷺ: (الأجوفان الفم والفرج) فاغسل قلبك بالندم على ما فاتك من الله عز وجل وغلطوا والله في النوائح على زوجة أو زوج أو والد أو ولد بل كان من حقهم أن يقيموا النوائح على فقدانهم تقوى الله من قلوبهم.

تقهقه بالضحك كأنك جاوزت الصراط وعثرة النيران: إذا لم يكن بينك وبين الله ورع يحجزك عن المعاصي إذا خلوت، وإلا فضع التراب على رأسك لقوله ﷺ : (من لم يكن له ورع يحجزه عن معاصي الله إذا خلا لم يعبأ الله بشيء من عمله) لا شيء يخجلك يوم القيامة مثل درهم أنفقته في حرام.

---

(١) المعارج: ١٩-٢٢

ليس الشأن فيمن يرفق بك إذا وافقته بل الشأن فيمن يرفق بك إذا خالفته ومما يخاف عليك موالاة الذنوب ليستدرجك فيها ويمكنك منها، قال الله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ﴾[1] إن كانت معك عناية ينفعك القليل وإن لم تكن عناية لم ينفعك الكثير ولو كشف عنك الحجاب لرأيت كل شيء ناطقًا مسبحًا لله تعالى ولكن النقص فيك والحجاب منك.

ما أكثر احتراسك على بدنك وما أرخص دينك عليك لو قيل لك إن هذا الطعام مسموم لامتنعت منه ثم لو حلف لك بالطلاق أنه ليس بمسموم لتوقفت عنه، بل لو غسلت الوعاء الذي هو فيه مرارا لنفرت منه نفسك فلم لا تكون كذلك في دينك وكم لله عليك من أياد أكثر من أمك، إنها إذا أخذتك وأنت صغير تلبسك أحسن الملابس فإن وسختها تخلع عليك ثيابًا أخرى في الوقت وأنت تأتي إلى مملكة مزينة، ليس فيها موضع شبر إلا ويصلح للسجود عليه تتلف ثوبك وتوسخه بالمعصية تجلي عليك المحاسن فتعجل فيها ما يكدره من المعصية.

ليس كل من صحب الأكابر اهتدى بصحبتهم فلا تجعل صحبة المشايخ علة في أمنك فمن اغتر بالله فقد عصاه لأنك أمنت عقوبته كما يقول الجاهل: صحبت سيدي فلاناً ورأيت سيدي فلانًا ويدعون دعاوى كلها كاذبة باطلة، بل كان ينبغي لهم أن يزيدهم صحبة المشايخ خوفًا ووجلاً فقد صحبت المشايخ رسول الله ﷺ وكانوا أكثر وجلاً ومخافة وربما كان الغني دفعًا والفقر جمعًا، لأن الفاقة تحوجك أن تتضرع إلى الله والفاقة تجمعك على الله خير من غنى يقطعك عنه.

كما أمرت أن تعرض عن المعصية أمرت أن تعرض عمن عصى وتدعو له في الغيبة والناس اليوم على العكس وما عسى أن ينفعك صومك وصلاتك وأنت تقع في عرض أخيك المسلم قال ﷺ: (جددوا إيمانكم بقول لا إله إلا الله) فدل ذلك على أنه يحصل له غبار المعصية ودنس المخالفة. وما كل غش يطهره الماء بل رب غش لا يطهره إلا النار كالذهب إذا كان فيه الغش فكذلك العصاة من هذه الأمة لا يصلحون لدخول الجنة حتى تطهرهم النار. لا تحسد إلا عبدًا قد لف في ملابس التقوى هذا هو العيش، وما أطيب عيش المحب مع الحبيب إذا لم يطلع عليه رقيب

---

(١) الأعراف: ١٨٢

فإن أحب أن يطلع عليه رقيب فما صدق في حبه وكل من أراد أن يعلم أحد بحاله فقد خدع ولا تكن كأرباب الدنيا الذين طلقتهم الدنيا بل كن من الذين طلقوها وفارقوها، فمثالك إذا آثرت الدنيا على الآخرة كمن له زوجتان إحداهما عجوز خائنة والأخرى شابة وفية، فإذا آثرت العجوز الخائنة على الشابة الوفية أفما تكون أحمقًا؟ ربما قضى عليك بالذنب ليخرج منك الكبر والعجب يصلي الرجل ركعتين فيعتمد عليهما ويركن إليهما ويعجب بهما فهذه حسنة أحاطت بها سيئات وآخر يفعل المعصية فتكسبه الذلة والانكسار ويديم المسكنة والافتقار فهذه سيئة أحاطت بها حسنات. كفى بك جهلاً نظرك إلى صغير إساءة غيرك وتعاميك عن كبير إساءتك.

لا تنتقد على الناس بظاهر الشرع ولا تنكر عليهم فلو خوطبوا اليوم بما كانت عليه الصحابة والسلف الصالح لم يستطيعوا لأن أولئك حجج الله على خلقه. مثال الذنب عند أرباب البصائر كجيفة أدخلت الكلاب خراطيمها فيها أرأيت إذا غمس رجل فمه في جيفة أفما تعيب عليه فإذا كان الحق سبحانه قد جعل ميزانًا للبيع والشراء فما نجعل ميزانًا للحقاق. المتنجس القدم لا يصلح للمحاضرة فكيف بمن تنجس فمه.

من تجرأ على صغيرة وقع في كبيرة، اعرف كمائن نفسك ولا تثق بها إذا قالت لك تزور فلانًا فربما رحت إلى نار تتأجج وترمي نفسك فيها عمدًا. هذا زمان اجتماع قلَّ ما نجلس مجلسًا إلا وتعصي الله فيه.

من أراد أن ينظر إلى أمثلة القلوب فلينظر إلى الديار فدار خربت وقد بقيت مبولة للبوالين وقلب كالدار العامرة وقلب كالدار الخرب. لا تظهر شمسك حتى تعامل الله فصدق كل يوم ولو بربع درهم حتى يكتبك الله في ديوان المتصدقين وائل من القرآن كل يوم ولو آية حتى يكتبك الله في ديوان التالين، وصل في الليل ولو ركعتين حتى يكتبك الله مع القائمين. وإياك تغلط وتقول من عنده قوت يوم بيوم كيف يتصدق قال تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾[1] فمثال المسكين إذا تصدق عليه كالمطية تحمل زادك للآخرة. من أراد النهايات فعليه بتصحيح البدايات. من صدق مع الله كفاه الله مضرة الأعداء. قد هان

---

(١) الطلاق: ٧

كل الهوان من احتاج إلى الخلق. أتظن أن الدواء حلو تأكله إن لم تهجم عليه هجمًا لم يحصل لك الشفاء فاهجم على التوبة ولا تغلبنك حلاوة المعصية وإذا رأيت نفسك متطلعة إلى الشهوة فاهرب إلى الله واستغث به فإنه ينجيك منها بدل ما نقول أين أصحاب الخطوة أين الأولياء أين الرجال قل أين البصيرة، هل يصلح للمتلطخ بالعذرة أن يرى بنت السلطان.

من أكرم مؤمنًا فكأنما أكرم الله ومن آذى مؤمنًا فقد آذى سيده ومولاه فإياك أن تؤذى مؤمنًا فإن نفسك قد امتلأت بمساويها ويكفيك حملك، ما مثالك إلا كالبصلة إذا قشرت خرجت كلها قشورًا.

إذا أردت تنظيف الماء قطعت عنه أسبابه الخبيثة، فمثال الجوارح كالسواقي تجرى إلى القلب فإياك أن تسقي قلبك بالردى كالغيبة والنميمة والكلام السيئ والنظر إلى ما لا يحل وغير ذلك فإن القلب لا يحجبه من خرج منه وإنما يحجبه ما قام فيه، فاستنارة القلب بأكل الحلال والذكر وتلاوة القرآن وصونه عن النظر إلى الكائنات المباحات والمكروهات والمحرمات فلا تطلق صائد بصرك إلا لمزيد علم أو حكمة عوض، ما تقول: هذا المرآة صدئت قل: عيني بها رمد.

يكون بك حب الرياسة والجاه وغيرهما وتقول: الشيخ ما يجذب قلوبنا قل: العائق مني. لو استعدت في أول يوم لما احتجت إلى حضور مجلس ثان وإنما احتجت إلى التكرار لقوة صدأ قلبك حتى تكون لكل جلسة صقلة عليك بالحوالة على مولاك واترك من لا يستطيع أن ينفع غيرك. اقطع إياسك من الخلق ووجه رجاءك إلى الملك الحق وانظر ماذا عمل معك من أول نشأتك ما صنع معك إلا جودًا وإحسانًا وانظر ماذا صنعت معه فلا ترى إلا جفاءً وعصيانًا.

ما أكثر موالاتك للمخلوقين وما أقل موالاتك لله، جوارحك غنمك وأنت الراعي والله هو المالك فإن رعيتها في المرعى الخصيب حتى أرضيت المالك استوجب الرضا وإن رعيتها في المرعى الوخيم حتى أعجف[1] أكثرها ثم جاء الذئب فأخذ بعضها استوجبت العقوبة من المالك فإن شاء انتقم منك وإن شاء عفا عنك، إما ثواب إلى الجنة وإما عقابك بالنار فإن صرفتها فيما يرضاه كنت ساعيًا في طريق

(١) أعجف : هَزُل.

الجنة وإلا كنت ساعيًا في طريق النار فهذه موازين الحكمة، فزن بها عقلك كما تزن بها الأشياء المحسوسات، فإن أردت أن تعرف كيف تمر على الصراط فانظر حولك في الإسراع إلى المساجد، فيكون جزاء الذي يأتي إلى المسجد قبل الأذان أن يمر على الصراط كالبرق الخاطف، والذى يأتي في أول الوقت يمر عليه كأجاويد الخيل[1] وههنا صراط الاستقامة لا يشهد بالأبصار ولكن تشهد القلوب، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ﴾[2] ولم يشر إلى موجود فمن أضاءت له الطريق بتبعها ومن كانت طريقه مظلمة لم يشهدها فيبقى متحيرًا، فإن كنت قد أطلقت سمعك وبصرك ولسانك برهة من عمرك فقيد الآن ما أطلقت قال رسول الله ﷺ: (يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام) وذلك لأنهم سبقوا في الدنيا بالعبادات وأنت تترك الجماعة وتصلي وحدك وإذا صليتها نقرتها نقر الديك وهل يهدى للملوك إلا ما حسن وانتخب فما سبق الفقراء إلى الجنة إلا لأنهم سبقوا إلى خدمة المولى في الدنيا والمراد بالفقراء الصبر الذين صبروا على مر الفاقة حتى إن أحدهم ليفرح بالشدة كما تفرح أنت بالرخاء فدخول الفقراء الجنة يدل على تحضيضهم.

كفى بك جهلاً أن تتردد إلى مخلوق وتترك باب الخالق فقد ارتكبت المعاصي من كل جانب أفلا تكون محزونًا على نفسك والعجب كل العجب من عبد يقبل على صحبة نفسه ولا يأتيه الشر إلا منها ويترك صحبة الله ولا يأتيه الخير إلا منه، فإن قيل: كيف الصحبة لله؟ فاعلم أن صحبة كل شيء على حسبه، فصحبة الله تعالى بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وصحبة الملكين أن يمليهما الحسنات.

أرحم ما أكون بعبدي إذا أعرض عني، فرب مطيع هلك بالعجب، ورب مذنب غفر له بسبب كسر قلبه، عن الشيخ المكين الدين الأسمر أنه قال: رأيت بالإسكندرية عبدًا مع سيده وعليهما لواء قد أطبق ما بين السماء والأرض فقلت: يا ترى هذا اللواء للسيد أم للعبد فتبعتهما حتى اشترى له سيده حاجة وفارقه فما ذهب العبد ذهب اللواء معه فعلمت أنه ولي من أولياء الله تعالى فجئت إلى سيده وقلت

---

(١) أجاويد الخيل: النجباء من الخيل.

(٢) الأنعام: ١٥٣

له: أتبيعني هذا العبد فقال: لماذا؟ فما زال بى حتى ذكرت له أمره فقال: لي ياسيدي الذي تطلبه أنت أنا أولى به وأعتقه وكان وليا كبيرًا، فمنهم من يعرف الأولياء بالشم من غير وجود طيب، ومنهم من يعرف بالذوق إذا رأى وليًا ذاق طعم الحلاوة في فمه وإذا رأى صاحب قطيعة ذاق طعم المرارة في فمه.

من لم يترك المحرمات لم ينفعه القيام بالواجبات. من لم يحتم[1] لم ينفعه الدواء.

ما أقل بركة مال وقعت فيه أيدي الناهبين فهذا والله عمر الغافلين منهوب. مثال الدنيا كعجوز جذماء برصاء سترت بثوب حرير فالمؤمن نافر ومنفر عنها لانكشافها له، وما لبس أحد لباسًا أنتن من لباس الدعوى بأن يقول في المخاصمة أنت مثلي وأنت يصلح لك أن تكلمني ومن أنت حتى أكلمك فأول من هلك بذلك إبليس فإياك وهذا ولو كان أعرج أجذم أجرب فلا تحقره لحرمة لا إله إلا الله في قلبه وحسن ظنك بكل أحد تفلح.

أتحسب أن حسن الخلق هو أن يكون الإنسان حسن الملتقى، ومن أكرم الناس وضيع حقوق الله ليس هذا بخلق حسن، بل لا تكون ممدوحًا بحسن الخلق حتى تكون قائمًا بحقوق الله تعالى وقائمًا بأحكامه مستسلمًا لأوامر الله مجتنبًا لنواهيه فمن منع نفسه معاصي الله وأدى حقوق الله فقد حسن خلقه. ما سلط الله عليك ألسنة العباد إلا لترجع إليه. لا تزال لك قيمة عند الله حتى تعصي فإذا عصيت فلا قيمة لك. التقوى هي ترك معصية الله حيث كنت لا يراك أحد، كان النبي ﷺ (إذا شرب الماء قال: الحمد لله الذي جعله عذبًا فراتًا برحمته ولم يجعله ملحًا أجاجًا بذنوبنا) وهو ﷺ مقدس عن الذنوب ولكن تواضعًا منه وتعليمًا وكان يمكنه أن يقول بذنوبكم وما أكل ﷺ ولا شرب إلا ليعلمنا الأدب وإلا فكان ﷺ يطعم ويسقى، فالعارف ينكس رأسه إذا شرب وربما تقطر عيناه الدموع ويقول: هذا تودد من الله تعالى، كان بعضهم لا يخرج لصلاة الجماعة لما يعرض له في طريقه منهم مالك بن أنس – رضي الله عنه – لأن الجماعة ربح، والربح لا يحسب إلا بعد الإحاطة على رأس المال.

---

(١) يحتم: يمتنع عما يضره وهي مشتقة من الحمية: وهي الإقلال من الطعام ونحوه مما يضره.

ليس السباع في البرية بل السباع في الأسواق والطرق وهي التي تنهش القلوب نهشاً. مثال من يكثر الذنوب والاستغفار كمثل من يكثر شرب السم ويكثر استعمال التِّرياق[1] فيقال له: لا تصل إلى الترياق مرة فيهجم عليك الموت قبل الوصول إليه.

من مرض قلبه منع من أن يلبس لباس التقوى، فلو صح قلبك من مرض الهوى والشهوة تحملت أثقال التقوى: فمن لم يجد حلاوة الطاعة دل على مرض قلبه من الشهوة، وقد سمى الله تعالى الشهوة مرضًا بقوله تعالى: ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾[2] ولك في علاجه طريقان: استعمال ما هو لك نافع وهو الطاعة واجتناب ما هو لك مضر وهو المعصية، فإن فعلت ذنبًا أعقبته بالتوبة والندم والانكسار والإنابة كان ذلك سبب وصلتك به وإن فعلت طاعة فأعقبتها بالعجب والكبر كان ذلك سبب القطيعة عنه.

عجبًا لك تطلب صلاح قلبك وجوارحك تفعل ما شاءت من المحرمات كالنظر والغيبة والنميمة وغير ذلك، فمثالك كمن يتداوي بالسم أو كمن أراد تنظيف ثوبه بالسواد فعليك بالخلوة والعزلة فمن كانت العزلة دأبه كان العزُّ له فمن صدقت عزلته ظفر بمواهب الحق له بالمنن وعلامتها كشف الغطاء وإحياء القلب وتحقيق المحبة، فعليك بحسن العمل لا بكثرته.

كثرة العمل مع عدم الحسن فيه كالثياب الكثيرة الوضيعة الثمن، وقلة العمل مع حسنه كالثياب القليلة الرفيعة الثمن كالياقوتة صغير جرمها[3] كثير ثمنها، فمن أشغل قلبه بالله وعالجه مما يطرأ عليه من الهوى كان أفضل ممن يكثر من الصلاة والصوم. مثال من صلى الصلاة بغير حضور قلب كان كمن أهدى للملك مائة صندوق فارغة فيستحق العقوبة من الملك يذكره عليها دائمًا، ومن صلاها بحضور القلب كان أهدى له ياقوتة تساوي ألف دينار فإن الملك يذكره عليها دائما، إذا دخلت في الصلاة فإن تناجي الله سبحانه وتعالى وتكلم رسوله ﷺ لأنك تقول

---

(١) التِّرياق: بكسر التاء دواء السم.

(٢) الأحزاب: ٣٢

(٣) الجرم: بكسر الجيم الجسد.

السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ولا يقال أيها الرجل عند العرب إلا لمن يكون حاضرًا، ركعتان بالليل خير من ألف بالنهار وأنت لا تصلي فيه ركعتان إلا لتجد ذلك في ميزانك وهل تشتري عبدًا إلا للخدمة، هل رأيت عبدًا يشتري ليأكل وينام، ما أنت إلا عبد اشتريت قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾[1] من لم يلزم نفسه لزمته، ومن لم يطالبها طالبته فلو جعلت عليها الأثقال بالطاعة لما طالبتك بالمعصية ولما كانت تتفرغ لها وهل رأيت الصالحين والعباد يتفرجون في الأعياد. من شغل نفسه بالفرح والمباحات شغل عن قيام الليل فيقال له شغلت نفسك عنك فشغلناك عن عبادتنا.

ركعتان في جوف الليل أثقل عليك من جبل أحد، فأعضاء يبست عن الطاعة لا تصلح إلا للقطع فإن الشجرة إذا يبست لا تصلح إلا للنار.

من أحب الدنيا بقلبه كان كمن بنى بناء حسنًا فوقه مرحاض فرسخ عليه فلا يزال كذلك حتى يرى ظاهره كباطنه ومنهم من ينقيه فلا يزال قلبه أبيض وتنقيته بالتوبة والأذكار والندم والاستغفار، كذلك أنت في حضرة الله ملوث بمعصيتك تأكل الحرام وتنظر المحرم فمن يفعل المخالفات والشهوات بظلم قلبه، فإن لم تتب في حال الصحة ربما ابتلاك بالأمراض والمحن حتى تخرج نقيًا من الذنوب كالثوب إذا غسل، فأصقل مرآة قلبك بالخلوة والذكر حتى تلقى الله تعالى، وليكن قلبك ذاكرًا فينبغ لك الأنوار ولا تكن كمن يريد أن يحفر بئرًا فيحفر ذراعًا هنا وذراعًا هنا فلا ينبع له ماء أبدًا، بل احفر في مكان واحد فينبع لك الماء.

يا عبد الله دينك هو رأس مالك فإن ضيعت رأس مالك فاشغل لسانك بذكره وقلبه بمحبته وجوارحك بخدمته واحرث وجودك بالمحارث حتى يجيء البذر فينبت ومن فعل بقلبه كما يفعل الفلاح بأرضه أنار قلبه.

مثالك مثال رجلين اشتريا أرضا قياسًا واحدًا فأخذها الواحد فنقاها من الشوك والحشيش وأجرى بها الماء وبذرها فنبتت وجنى منها وانتفع بها، فهذا كمن نشأ في الطاعة قد أشرقت أنوار قلبه، وأما الآخر فإنه أهملها حتى نبت فيها الشوك

---

(١) التوبة: ١١١

والحشيش وبقيت مأوى للأفاعي والحيات، فهذا قد أظلم قلبه بالمعاصي إذا حضرت المجلس وخرجت إلى المخالفات والغفلات فإياك تقول ماذا يفيد الحضور، بل احضر.

يكون بك مرض أربعين سنة فتريد أن يذهب عنك في ساعة واحدة أو في يوم واحد فمثاله كرمل رمي في موضع أربعين عامًا، أفتريد أن يزول في ساعة واحدة أو في يوم واحد، فمن فعل المعاصي وتقلب في الحرام لو انغمس في سبعة أبحر لم تطهره حتى يعقد مع الله عقدة التوبة، للظاهر جنابة[1] وهي الغفلة فإذا طلبت النفس الشهوات فألجمها بلجام الشرع فمثالها كالدابة إذا مالت لزرع غيرك فغمض الأبصار عن ميلها إلى المستحسنات والقلوب عن ميلها إلى الشهوات.

ليكن قلبك معمورًا لا يصلح لها على الدوام والحق سبحانه وتعالى اختار لحضرته من يصلح لها ومن رماد الكائنات فمثالهم كالعبيد يعرضون على الملك فمن أخذه الملك أعزه ومن لا يصلح بقي للرعية. ما أتيت لموطن حكمة أو معصية إلا وفي عنقك سلسلة نورانية أو ظلمانية فإن كنت لا تشهدها أنت فغيرك يشهدها، ألا ترى أن الشمس يشهدها الناس أجمعون إلا من كان أعمى.

ما فائدة العلم إلا العمل به، مثاله كملك كتب إلى نائبه كتابًا فما فائدة الكتاب أن تقرأه فقط، إنما فائدته العمل به.

مثال من يشتغل بالعلم وليس له بصيرة كمثل مائة ألف أعمى سلكوا طريقًا متحيرين فيها فلو كان فيهم واحد بعين واحدة لتبعه الناس أجمعون وتركوا مائة ألف أعمى، ومثال العلم مع ترك العمل كالشمعة تضيء للناس بإحراق نفسها.

علم فيه الغفلة عن الله الجهل خير منه، فمن أثمرت جوارحه فقد أمطر قلبه ولسانه بالذكر وعينيه بالغض وأذنيه بالاستماع إلى العلم ويديه ورجليه بالسعي إلى الخيرات.

---

(١) يقصد بن عطاء الله من هذه العبارة أن المسلم إذا كان جنبا غير طاهر وهذه الجنابة في الظاهر تمنع المسلم من دخول المسجد وتلاوة القرآن ومس المصحف أما جنابة الباطن فهي الغفلة وتمنع المسلم أن يكون في حضرة الله ومعيته.

من أكثر من مجالسة أهل هذا الزمان فقد تعرض لمعصية الله تعالى، مثاله كمن جعل الحطب اليابس في النار ويريد أن لا تتقد، فقد أراد محالاً لأنه قد ورد.

خص بالبلاء من عرف الناس وعاش فيهم من لم يعرفهم، فربما جالست غير متق وكنت أنت متقيًا فجرك إلى الغيبة وقهرك في نفسك، ما خرب القلوب إلا قلة الخوف.

القلب الحسن هو الذي لا يشغله عن الله حسن. إن أردت شفاء قلبك فاخرج إلى صحراء التوبة وحول حالك من الغيبة إلى الحضور والبس ثياب الذلة والمسكنة فإن القلب يشفى، ولكنك تحشر بطنك وتتفاخر بالسمن فمثالك كالخروف الذي يسمن للذبح ألا فقد ذبحت نفسك وأنت لا تشعر.

لا يفتك مجلس الحكمة ولو كنت على معصية فلا تقل ما الفائدة في سماع المجلس ولا أقدر على ترك المعصية، بل على الرامي أن يرمي، فإن لم يأخذ اليوم يأخذ غدًا ولو كنت كيِّسًا فطنًا لكانت حقوق الله عندك أحظى من حقوق نفسك.

ما يطلع على الأسرار إلا أمين وأنت تعطي نفسك حظها من المآكل والمشارب حتى تملأ بيت الخلاء أو يكفيك حب الدنيا، ومن أحب الدنيا فقد خان ومن خان فهل يطلعه الملك على أسراره فاستعمل الأفكار وعليه أنزل الأنوار.

ما نفع القلب شيء مثل خلوة يدخل بها ميدان فكرة كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة في مرآته، أم كيف يرحل إلى الله وهو منكب على شهواته أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته، أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته. أصل كل معصية وغفلة وسهو الرضا عن النفس، وأصل كل طاعة ويقظة وعفة عدم الرضا عنها.

لا ترحل من كون إلى كون فتكون كالحمار في الرحى يسير والذي ارتحل إليه هو الذي ارتحل منه ولكن أحل من الأكوان المُكَوِّن ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾[1] إنما الأنوار مطايا القلوب والأسرار والنور جند القلب، كما أن الظلمة جند النفس، فإذا أراد الله أن ينصر عبده أمده بجنود الأنوار وقطع عنه مدد الظلم والأغيار.

---

(١) النجم: ٤٢

النور له الكشف والبصيرة لها الحكم والقلب له الإقبال والإدبار، الأكوان ظاهرها غُرَّة[1] وباطنها عبرة فالنفس تنظر إلى ظاهر غرتها والقلب ينظر إلى باطن عبرتها.

متى أوحشك من خلقه فاعلم أنه يريد أن يفتح لك باب الأنس به، الصلاة محل المناجاة ومعدن المصفاة يتسع فيها ميادين الأسرار وتشرق فيها شوارق الأنوار، علم وجود الضعف منك فقلل أعدادها وعلم احتياجك إلى فضله فكثر إمدادها. الناس يمدحونك بما يظنون فيك فكن أنت ذامًا لنفسك لما تعلم منها فإن أجهل الناس من ترك يقين ما عنده لظن ما عند الناس. غيب نظر الخلق إليك بنظر الله إليك رغب عن إقبالهم عليك بشهود إقباله عليك. علم أن العباد يتشوقون إلى ظهور سر العناية فقال تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾[2] .

وعلم أنه لو أخلاهم من ذلك لتركوا العمل اعتمادًا على الأزل فقال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[3] إن أردت ورود المواهب عليك فصحح الفقر والفاقة إليك ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾[4] أنوار أذن لها في الدخول وأنوار أذن لها في الوصول. ربما وردت عليك الأنوار فوجدت القلب محشوًا بصور الآثار فارتحلت من حيث نزلت، فرغ قلبك من الأغيار تملؤه بالمعارف والأسرار. المؤمن يشغله الثناء على الله عن أن يكون لنفسه شاكرًا وتشغله حقوق الله عن أن يكون لحظوظه ذاكرًا.

جعلك الله في العالم الأوسط بين ملكه وملكوته ليعلمك جلالة قدرك بين مخلوقاته وأنك جوهرة انطوت عليها أصداف مكوناته، أنت مع الأكوان مالم تشهد المكون فإذا شهدته كانت الأكوان معك.

العاقل بما هو أبقى أفرح منه بما هو يفنى، قد أشرق نوره وظهرت تباشيره فصد عن هذا الدار موليا وأعرض عنها مغضبًا فلم يتخذها موطنًا ولا جعلها سكنًا،

---

(١) غرة: واضحة ظاهرة.

(٢) آل عمران: ٧٤

(٣) الأعراف: ٥٦

(٤) التوبة: ٦٠

بل نهض الهمة فيها إلى الله تعالى وسار إليه مستعيناً به في القدوم عليه فما زالت مطية عزمه لا يقر قرارها دائما تسيارها على أن أناخت بحضرة القدس وبساط الأنس محل المفاتحة والمواجهة والمجالسة والمحادثة والمشاهدة والملاطفة وصارت الحضرة معشش[1] قلوبهم إليها يأوون وفيها يستوطنون فإن نزلوا إلى سماء الحقوق وأرض الحظوظ فبالإذن والتمكين والرسوخ في اليقين فلم ينزلوا إلى الحقوق بسوء الأدب والغفلة ولا إلى الحظوظ بالشهوة والمتعة، بل دخلوا في ذلك كله بالله ولله ومن الله وإلى الله، فإياك يا أخي أن تصغي إلى أن الواقعين في هذه الطائفة لئلا تسقط من عين الله وتستوجب المقت من الله فإن هؤلاء القوم جلسوا مع الله على حقيقة الصدق وإخلاص الوفاء ومراقبة الأنفاس مع الله قد سلموا قيادتهم إليه وألقوا أنفسهم سلمًا بين يديه وتركوا الانتصار لأنفسهم حياء من ربهم، فكان هو المحارب عنهم لمن حاربهم والغالب لمن غالبهم ولقد ابتلى الله هذه الطائفة بالخلق خصوصًا ولا سيما أهل العلم، فقل أن تجد ممن شرح الله صدره للتصديق بولي معين يقول لك: نعم إن الأولياء موجودون، ولكن أين هم فلا يذكر له أحد إلا وأخذ يدفع خصوصية الله فيه طلق اللسان بالاحتجاج عاريا من التصديق، فاحذر ممن هذا وصفه وفر منه فرارك من الأسد.

قال الشيخ أبو الحسن – رضي الله تعالى عنه – ليس الفقيه من فقأ الحجاب عيني قلبه وإنما الفقيه من فهم سر الإيجاد وأنا ما أوجده إلا لطاعته ولا خلقه إلا لخدمته إذا فهم هذا كان هذا الفقه منه سببًا لزهده في الدنيا وإقباله على الآخرة وإهماله لحظوظ نفسه واشتغاله بحقوق سيده مفكرًا في المعاد قائمًا بالاستعداد قال رسول الله ﷺ: (المؤمن القوي خير عند الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير) والمؤمن القوي هو الذي أشرق في قلبه نور اليقين، قال الله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾[2] سبقوا إلى الله فخلص قلوبهم فلم تعقهم العوائق ولم تشغلهم عن الله الخلائق فسبقوا إلى الله، إذ لا مانع لهم وإنما منع العباد من السبق جواذب التعلق بغير الله فكلما همت قلوبهم أن ترحل إلى الله – سبحانه وتعالى – جذبها ذلك التعلق الذي به تعلقت فكرت راجعة إليه ومقبلة عليه فالحضرة محرمة على من هذا وصفه وممنوعة على من هذا نعته، وافهم هاهنا

---

(١) معشش: مأخوذة من عشش الطائر اتخذ عشا يقيم فيه ويأوي إليه.

(٢) الواقعة: ١٠-١٢

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[1] والقلب السليم هو الذي لا تعلق له بشيء غير الله تعالى وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾[2] يفهم منه أنه لا يصلح مجيئك إلى الله ولا الوصول إليه إلا إذا كنت فردًا مما سواه وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى﴾[3] يفهم منه أنه لا يأويك الله إلا إذا صح يُتمك مما سواه وقوله ﷺ: (إن الله وتر يحب الوتر) أى يحب القلب الذي لا يشفع بمثنيات الآثار، فكانت هذه القلوب لله وبالله فهم أهل الحضرة المخاطبون بعين المنة فكيف يمكنهم أن يكونوا سواء مستندين وهم لوجود الأحدية مشاهدون، قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي – رضي الله عنه – قوى علي الشهود فسألته أن يستر علي ذلك فقيل لي لو سألته بما سأله موسى كليمه وعيسى روحه ومحمد حبيبه وصفيه ﷺ لم يفعل ولكن سله أن يقويك، فسألته فقواني، فأهل الفهم أخذوا عن الله وتوكلوا عليه فكانوا بمعونته لهم فكفاهم ما أهمهم وصرف عنهم ما أغمهم واشتغلوا بما أمرهم عما ضمن لهم علمًا منهم بأنه لا يكلمهم إلى غيره ولا يمنعهم من فضله فدخلوا في الراحة ووقفوا في جنة التسليم ولذاذة التفويض فرفع الله بذلك مقدارهم وكما أنوارهم. واعلم – رحمك الله تعالى – أن العلم حيثما تكرر في الكتاب العزيز أو في السنة المطهرة إنما المراد به العلم النافع الذي تقارنه الخشية وتكتنفه المخافة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[4] فبين أن العلم تلازمه الخشية فالعلماء هم أهل الخشية وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ﴾[5] وقوله تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾[6] وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾[7] وقوله ﷺ: (العلماء ورثة الأنبياء)إنما المراد بالعلم في هذه المواطن كلها العلم النافع القاهر للهوى القامع للنفس وذلك متعين بالضرورة، لأن كلام الله تعالى وكلام رسول الله ﷺ أجل من أن يحمل على غير هذا والعلم النافع هو الذي يستعان به على الطاعة ويلزم الخشية من الله تعالى والوقوف على حدود

---

(١) الشعراء: ٨٨-٨٩

(٢) الأنعام: ٩٤

(٣) الضحى: ٦

(٤) فاطر: ٢٨

(٥) الإسراء: ١٠٧

(٦) آل عمران: ٧

(٧) طـــه: ١١٤

الله تعالى وهو علم المعرفة بالله تعالى ولكن من استرسل بإطلاق التوحيد ولم يتقيد بظواهر الشريعة فقد قذف به في بحر الزندقة، ولكن الشأن أن يكون بالحقيقة مؤيدًا وبالشريعة مقيدًا وكذلك المحقق فلا يكون منطلقًا مع الحقيقة ولا واقفًا مع ظاهر إسناد الشريعة ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً﴾[1] فالوقوف مع ظاهر الإسناد شرك، والانطلاق مع الحقيقة من غير تقيد بالشريعة تعطيل، ومقام الهداية فيما بين ذلك، وكل علم تسبق إليك فيه الخواطر وتتبعها بالصور وتميل إليه النفس وتلتذ به الطبيعة، فارم به وإن كان حقًا وخذ بعلم الله الذي أنزله على رسوله ﷺ واقتد به وبالخلفاء من بعده وبالصحابة والتابعين من بعدهم وبالهداة إلى الله تعالى الأئمة المبرئين من الهوى ومتابعتهم تسلم من الشكوك والظنون والأوهام والوساوس والدعاوى الكاذبة المضلة عن الهدى وحقائقه، وحسبك من العلم النافع العلم بالوحدانية ومن العلم محبة الله ومحبة رسوله ﷺ ومحبة الصحابة واعتقاد الحق للجماعة، وإذا أردت أن يكون لك نصيب مما لأولياء الله تعالى، فعليك برفض الناس جملة إلا من يدلك على الله تعالى[2] إما بإشارة صادقة أو بأعمال ثابتة لا ينقضها كتاب ولا سنة، فارفع همتك إلى مولاك واشتغل به دون غيره.

سمعت الشيخ أبا العباس المرسي يقول: والله ما رأيت العز إلا في رفع الهمة عن الخلق واذكر رحمك الله هاهنا قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[3] فمن العز الذي أعز الله به المؤمن رفع همته إلى مولاه وثقته به دون سواه، واستح من الله بعد أن يكون كساك حلة الإيمان وزينك بزينة العرفان أن تستولي عليك الغفلة والنسيان حتى تميل إلى الأكوان أو تطلب من غيره وجود الإحسان، وقبيح بالمؤمن أن ينزل حاجته بغير مولاه مع علمه بوحدانيته وانفراده بربوبيته وهو يسمع قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾[4] وليذكر قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾[5] ومن العقود التي عاقدته عليها أن لا ترفع حوائجك إلا إليه ولا تتوكل إلا عليه، ورفع الهمة عن الخلق هو ميزان الفقراء ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ

---

(١) الفرقان: ٦٧

(٢) يقول أحد الصالحين: أقلل من لقاء الناس ما استطعت إلا لأخذ علم أو إصلاح حال، لقاء الناس ليس يفيد عندي سوى الهزيان من قيل وقال

(٣) المنافقون: ٨

(٤) الزمر: ٣٦

(٥) المائدة: ١

بِالْقِسْطِ﴾[1] فيظهر الصادق بصدقه والمدعي بكذبه، وقد ابتلى الله تعالى بحكمته ووجود منته الفقراء الذين ليسوا بصادقين بإظهار ما كمنوه من الرغبة وأسروه من الشهوة فابتذلوا أنفسهم لأبناء الدنيا مباسطين لهم موافقين لهم على مآربهم مدفوعين على أبوابهم، فترى الواحد منهم يتزين كما تتزين العروس معتنون بإصلاح ظواهرهم غافلون عن إصلاح سرائرهم ولقد وسمهم الحق وسمة كشف بها عوارهم وأظهر أخبارهم، فبعد أن كانت نسبتهم مع الله أن لو صدقوا مع الله أن يقال له عبد الكبير فأخرج عن هذه النسبة فصار يقال له شيخ الأمير، أولئك الكاذبون على الله تعالى الصادون العباد عن صحبة أولياء الله، لأن ما يشهده العوام منهم يحملونه على كل منتسب إلى الله صادق وغير صادق فهم حجب أهل التحقيق أو سحب شمس أهل التوفيق ضربوا طبولهم ونشروا أعلامهم ولبسوا دروعهم فإذا وقعت الحملة ولوا على أعقابهم ناكصين ألسنتهم منطلقة بالدعوى وقلوبهم خالية من التقوى ألم يسمعوا قوله سبحانه وتعالى: ﴿لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾[2] أترى إذا سأل الصادقين أيترك المدعين من غير سؤال ألم يسمعوا قوله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[3] فهم في إظهار زي الصادقين وعلمهم عمل المعرضين، قال الله تعالى: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾[4] فاعلم أن باب الرزق طاعة الرازق فكيف يطلب منه بمعصيته أم كيف يستمر فضله بمخالفته، وقد قال ﷺ: (لا ينال ما عند الله بسخطه) أي: لا يطلب رزقه إلا برضاه، وقد قال تعالى مبينا لذلك بقوله: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾[5] ولهذا المعنى قال الشيخ أبو العباس – رضي الله تعالى عنه – في حزبه لما قال وأعطنا كذا وكذا، قال والرزق الهني لا حجاب به في الدنيا ولا حساب ولا سؤال ولا عقاب عليه في الآخرة على بساط علم التوحيد والشرع سالمين من الهوى والشهوة والطبع واحذر من التدبير مع الله، فمثال المدبر مع الله كعبد أرسله السيد إلى بلد ليصنع له ثيابًا فدخل العبد تلك البلدة فقال: أين أسكن ومن أتزوج فاشتغل بذلك وصرف همته لما هنالك وعطل ما أمره

---

(١) الرحمن: ٩

(٢) الأحزاب: ٨

(٣) التوبة: ١٠٥

(٤) البقرة: ١٨٩

(٥) الطلاق: ٢-٣

سيده به حتى دعاه إليه فجزاؤه من السيد أن جازاه القطيعة ووجود الحجبة لاشتغاله بأمر نفسه عن حق سيده كذلك أنت أيها المؤمن أخرجك الحق إلى هذه الدار أمرك فيها بخدمته وقام لك بوجود التدبير منة منه لك، فإن اشتغلت فيها بتدبير نفسك عن حق سيدك فقد عدلت عن سبيل الهدى وسلكت مسالك الردى، ومثال المدبر مع الله والذى لا يدبر مع الله كعبدين للملك، أما أحدهما فمشتغل بأوامر سيده لا يلتفت إلى ملبس ولا مأكل، بل إنما همته خدمة السيد، فأشغله ذلك عن التفرغ لحظوظ نفسه، وأما العبد الآخر فكيفما طلبه سيده وجده يغسل ثيابه في سياسة مركوبه وتحسين زيه، فالعبد الأول أولى بإقبال سيده من العبد الثاني، والعبد إنما اشترى للسيد لا لنفسه، كذلك العبد البصير الموفق لا تراه إلا مشغولاً بحقوق الله وامتثال أوامره عن محاب نفسه ومهماتها، فلما كان كذلك قام له الحق - سبحانه وتعالى - بكل أوامره وتوجه له بجزيل عطائه لصدقه في توكله، لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[1] والعاقل ليس كذلك لا تجده إلا في تحصيل دنياه وفى الأشياء التي توصله إلى هواه، ومثال العبد مع الله في هذه الدار كالطفل مع أمه ولم تكن الأم لتدع تدبير ولدها في كفالتها ولا أن نخرجه من رعايتها، كذلك المؤمن مع الله قائم له بحسن الكفالة فهو سائق المنن إليه ودافع عنه المحن، ومثال العبد في الدنيا كمثل عبد قال له سيده: اذهب إلى أرض كذا وكذا واحكم أمرك لأن تسافر منها في برية كذا وكذا وخذ أهبتك وعدتك، فإذا أذن له السيد في ذلك فمعلوم أنه قد أباح له أن يأكل ما يستعين به على إقامة بنيته ليسعى في طلب العدة وليقوم بوجود الأهبة، كذلك العبد مع الله أوجده في هذه الدار وأمره أن يتزود منها لمعاده فقال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾[2] فمعلوم أنه إذا أمره بالزاد للآخرة فقد أباح له أن يأخذ من الدنيا ما يستعين به على تزوده إلى الآخرة، واستعداده وتأهبه لمعاده، ومثال العبد مع الله كمثل أجير أتى به الملك إلى داره وأمره أن يعمل عملاً فما كان الملك ليأتي بالأجير ويستخدمه في داره ويتركه من غير تغذية، إذ هو أكرم من ذلك، فكذلك العبد مع الله فالدنيا دار الله والأجير هو أنت والعمل هو الطاعة والأجرة هي الجنة، ولم يكن الله ليأمرك بالعمل ولا يسوق لك ما به تستعين عليه إلا لخيرك، ومثال العبد مع الله تعالى كمثل عبد أمره الملك أن يقيم في أرض كذا

---

(١) الطلاق: ٣

(٢) البقرة: ١٩٧

ويحارب فيها العدو ويجاهده فيها، فمعلوم أنه إذا أمره بذلك أباح له أن يأكل من مخازن تلك الأرض بالأمانة ليستعين به على محاربة العدو وكذلك العباد أمرهم الحق – سبحانه وتعالى – بمحاربة النفس والشيطان ومجاهدتهما لقوله تعالى: وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ[1] وقال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً﴾[2] فلما أمر العبد بمحاربته، أذن له أن يتناول من منابت أرضه ما يستعين به على محاربة الشيطان، إذ لو تركت المأكل والمشرب لم يمكنك أن تقوم بطاعته ولا أن تنهض لخدمته، ومثال العبد مع الله كمثل ملك له عبد، فبنى دارًا وبهجها وحسنها وتولى غراسها وكمل المشتهيات فيها في غير الموطن الذي فيه العبيد وهو يريد أن ينقلهم إليها، أترى إذا كانت هذه عنايته بهم فيما ادخرهم عنده هيأه لهم بعد الرحلة أيمنعهم ههنا أن يتناولوا من منه وفضلات طعامه وهو قد هيأ لهم الأمر العظيم والفضل الجسيم، كذلك العباد مع الله جعلهم في الدنيا وهيأ لهم الجنة فلا يريد أن يمنعهم من الدنيا ولكن ما يقيم به وجودهم، فقال تعالى: ﴿كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً﴾[3] وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾[4] وإذا ادخر لك الباقي ومنّ عليك به لا يمنعك الفاني، فإنما يمنعك ما لم يقسمه لك وما لم يقسمه لك فليس لك، ومثال المهموم بأمر دنياه الغافل عن التزود لأخراه كمثل إنسان جاءه سبع وهو يريد أن يفترسه ووقع عليه ذباب فاشتغل بذب الذباب ودفعه عن التحرز من السبع، والحق أن هذا عبد أحمق فاقد العقل ولو كان متصفًا بالعقل لشغبه أمر الأسد وصولته وهجومه عليه عن الفكرة في الذباب كذلك المهتم بأمر دنياه عن التزود للآخرة دل ذلك منه على وجود حمقه، إذ لو كان فاهمًا عاقلاً لتأهب للدار الآخرة التي هو مسئول عنها وموقوف عليها فلا يشغل بأمر الرزق، فإن الاهتمام به بالنسبة للآخرة نسبة للذباب إلى مفاجأة الأسد وهجومه، ومثال المدخر للأمانة كعبد الملك لا يرى أنه له مع سيده شيئًا ولا يعتمد على ادخار ما في يده ولا بد له منه، بل على ما يختاره السيد له فإذا فهم هذا العبد أن الإمساك مراد السيد أمسك لسيده لا لنفسه حتى يتخير موضع صرفه، فيكون له صارفًا حين

---

(١) الحج: ٧٨

(٢) فاطر: ٦

(٣) المؤمنون: ٥١

(٤) البقرة: ١٧٢

يفهم من سيده إرادة صرفه، فهذا بإمساكه غير ملوم لأنه أمسك لسيده لا لنفسه كذلك أهل المعرفة بالله إن بذلوا ففيه وإن أمسكوا فله يبتغون ما فيه رضاه لا يريدون ببذلهم وإمساكهم إلا إياه، فهم خزنة أمناء وعبيد كبراء وأبرار كرماء قد حررهم الحق من رق الآثار فلم يميلوا إليها بحب ولم يقبلوا عليها بود منعهم من ذلك ما أسكنه في قلوبهم من حب الله ووده وما امتلأت به صدورهم من عظمته ومجده فصارت الأشياء في أيديهم كهي في خزائن الله من قبل أن تصل إليهم علمًا منهم بأن الله تعالى يملكهم ويملك ما ملكهم.

(بيان للمعتبرين وهداية للمستبصرين) وهو أن من خرج من تدبيره لنفسه كان الله هو المتولي بحسن التدبير له، والتدبير على قسمين: تدبير محمود وتدبير مذموم فالتدبير المذموم هو كل تدبير يتعطف على نفسك بوجود حظها ليس لله فيه شيء كالتدبير في تحصيل معصية أو في حظ بوجود غفلة أو طاعة بوجود رياء وسمعة ونحو هذا، فهذا كله مذموم لأنه إما موجب عقابًا وإما موجب حجابًا، ومن عرف نعمة العقل استحيا من الله سبحانه أن يصرف عقله إلى تدبير مالا يوصله إلى قربه ولا يكون سببًا لوجود حبه والعقل أفضل ما منّ الله به على عباده، لأنه سبحانه خلق الموجودات وتفضل عليها بالإيجاد ودوام الإمداد فاشتركت الموجودات في إيجاده وإمداده، فلما اشتركت أراد الحق سبحانه أن يميز الآدمي عنهم فأعطاه العقل وأيده به وفضله بذلك على الحيوان وأكمل به نعمته على الإنسان، وبالعقل ووفوره وإشراقه ونوره تتم مصالح الدنيا والآخرة، فصرف نعمة العقل إلى تدبير الدنيا التي لا قدر لها عند الله تعالى كفر لنعمة العقل وتوجهه إلى الاهتمام بإصلاح شأنه في معاده قيامًا بشكر المحسن إليه والمفيض من نوره عليه أحق به وأحرى وأفضل له وأولى فلا تصرف عقلك الذي منّ الله به عليك في تدبير الدنيا التي هي كما أخبر عنها رسول الله ﷺ بقوله: (الدنيا جيفة قذرة) وكما قال الضحاك: (ما طعامك قال اللحم واللبن قال ثم يعودان إلى ماذا؟ قال إلى ما قد عملت يا رسول الله قال: فإن الله قد جعل ما يخرج من ابن آدم مثلا للدنيا). والتدبير المحمود هو ما كان تدبيرًا إلى ما يقربك إلى الله – سبحانه وتعالى – كالتدبير في براءة الذمة من حقوق المخلوقين إما وفاء وإما استحلالاً وتصحيح التوبة إلى رب العالمين والفكرة فيما يؤدي إلى قمع الهوى المردى والشيطان المغوي فهذا كله محمود لا شك فيه، ولذلك قال رسول الله ﷺ: (فكر ساعة خير من عبادة سبعين ساعة) والتدبير للدنيا على

قسمين: تدبير الدنيا للدنيا وتدبير الدنيا للآخرة، فتدبير الدنيا للدنيا هو أن يدبر في أسباب جمعها افتخارًا بها واستكثارًا لها، وكلما زيد فيها شيء ازداد غفلة واغترارًا، فأمارة ذلك أن تشغله عن الموافقة وتؤديه إلى المخالفة، وتدبير للآخرة كمن يدبر المتاجر ليأكل منها حلالاً أو لينعم بها على ذي الفاقة إفضالاً وليصون بها نفسه عن الناس إجمالاً فأمارة ذلك عدم الاستكثار والادخار والإسعاف والإيثار، فقد تبين من هذا أنه ليس كل طالب للدنيا مذمومًا، بل المذموم من طلبها لنفسه لا لربه ولدنيا لا لآخرته، فالناس إذا على قسمين: عبد طلب الدنيا للدنيا وعبد طلب الدنيا للآخرة. وسمعت شيخنا أبا العباس المرسى - رضي الله عنه - يقول: العارف لا دنيا له ولا آخرة، لأن دنياه لآخرته وآخرته لربه، وعلى هذا تحمل أحوال الصحابة والسلف - رضي الله عنهم - أجمعين، فكل ما دخلوا فيه من الأسباب، فهم بذلك إلى الله متقربون ولرضاه منسبون لا يقصدون بذلك الدنيا وزينتها ووجود لذاتها، ولهذا وصفهم الحق - سبحانه وتعالى - بقوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[1] وما ظنك بقوم يحبهم الله واختارهم الله لصحبة رسوله ﷺ ولمواجهة خطابه في تنزيله فما أحد من المؤمنين إلى يوم القيامة إلا وللصحابة في عنقه منن لا تحصى وأياد لا تنسى: لأنهم هم الذين حملوا إلينا عن النبي ﷺ الحكم والأحكام وبين الحلال من الحرام وفهموا الخاص والعام وفتحوا الأقاليم والبلاد وقهروا أهل الشرك والعناد وبحق قوله ﷺ صلاة وسلامًا دائما أبدا: (أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم) وقد وصفهم الله في الآية الكريمة بأوصاف إلى أن قال: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾[2] دل ذلك من قوله - سبحانه وتعالى - أنه ما ابتغوا بما حملوه من الدنيا ولم يقصدوا بذلك إلا وجهه الكريم وفضله العظيم وقال سبحانه وتعالى في آية أخرى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾[3] ولم ينف عنهم الأسباب ولا التجارة ولا البيع ولا الشراء فلا يخرجهم عن المدحة غناهم إذا قاموا بحقوق مولاهم قال عبد الله بن عقبة كان لعثمان بن عفان - رضي الله عنه - عند خازنه يوم قتل زنة مائة ألف وخمسمائة دينار وألف ألف درهم، وترك ألف فرس

---

(١) الفتح: ٢٩

(٢) الحشر: ٨

(٣) النور: ٣٦

وألف مملوك وخلف ضباعة بئر أريس وخيبر ووادي القرى ما قيمته مائتا ألف دينار، وخلف عمرو بن العاص ثلاثمائة ألف دينار، وبلغ مال الزبير بن العوام خمسين ألف دينار وترك ألف فرس وألف مملوك، وغنى عبد الرحمن بن عوف – رضي الله عنه – أشهر من أن يذكر وكانت الدنيا في أكفهم لا في قلوبهم صبروا عنها حين فقدت وشكروا الله حين وجدت، وإنما ابتلاهم الله بإنفاقه في أول أمرهم حتى تكلمت أنوارهم وتطهرت أسرارهم، فبذلها لهم حينئذ، لأنهم لو أعطوا منها قبل ذلك لعلها كانت تأخذ منهم فلما أعطوها بعد التمكين والرسوخ في اليقين تصرفوا فيها تصرف الخازن الأمين وامتثلوا فيها قول رب العالمين: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾[1] فكانت الدنيا في أيدي الصحابة لا في قلوبهم ويكفيك في ذلك خروج عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – عن نصف ماله وخروج أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – عن ماله كله وخروج عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه عن سبعمائة بعير موقورة[2] بالأحمال وتجهيز عثمان بن عفان رضي الله عنه في هذا جيش العسرة إلى غير ذلك من حسن أفعالهم وسني أحوالهم رضي الله عنهم أجمعين رضاء دائمًا أبدا فتضمنت الآيات التزكية لظواهرهم وسرائرهم وإثبات محامدهم ومفاخرهم، فقد تبين من هذا أن التدبير على قسمين: تدبير الدنيا للدنيا كما هو حال أهل القطيعة اللئام الغافلين وتدبير الدنيا للآخرة كحال الصحابة الأكرمين والسلف الصالح – رضوان الله تعالى عليهم أجمعين – وجعلنا ممن اقتدى بهم آمين بل ألف ألف آمين.

(فصل) نذكر فيه مناجاة الحق – سبحانه وتعالى – لعبده على لسان هواتف الحقائق في شأن التدبير والرزق: أيها العبد ألق سمعك وأنت شهيد يأتيك مني المزيد واصغ بسمعك فأنا لست عنك ببعيد كنت بتدبيري لك قبل أن تكون لنفسك فكن لنفسك بأن لا تكون لها وتوليت رعايتها قبل ظهورها وأنا الآن على الرعاية لها.

أنا المنفرد بالخلق والتصوير وأنا المنفرد بالحكم والتدبير لم تشاركني في خلقي وتصويري فلا تشاركني في حكمتي وحكمي وتدبيري، أنا المدبر لملكي وليس لي فيه ظهير، وأنا المنفرد بحكمي، فلا أحتاج إلى وزير، أيها العبد من كان لك بتدبيره

---

(١) الحديد: ٧

(٢) موقورة: مثقلة.

قبل الإيجاد فلا تشاركه في المراد ومن عودك حسن النظر منه إليك فلا تقابله بالعناد، عودتك حسن النظر مني لك فهو في إسقاط التدبير منك معي، أشك بعد وجود التجربة وحيرة بعد وجود البيان وضلالاً بعد وضوح الهدى، وقد سلمت لي قيامي بمملكتي وأنت من مملكتي فلا تنازع ربوبيتي ولا تضادد بتدبيرك مع وجود ألوهيتي، متى أحوجتك إليك حتى نحتال عليك، متى وكلت شيئًا من ممكلتي لغيري حتى أكل ذلك إليك، متى خاب من كنت له مدبرًا ومتى خزل من كنت له ناصرًا. أيها العبد لتشغلك خدمتى عن طلب قسمتي وليمنعك حسن الظن بى عن اتهام ربوبيتي، لا ينبغي أن يتهم محسن ولا ينازع مقتدر ولا أن يضاد قهار ولا أن يعترض على حكيم ولا أن يعال همّ مع لطيف، لقد استوجب النصر مني عبد إذا تحرك يتحرك بي ولقد استمسك بأقوى الأسباب من استمسك بسببي.

أيها العبد نريد منك أن تريدنا ولا تريد معنا ونريد منك أن تختارنا ولا تختار معنا، ونرضي لك أن ترضانا ولا ترضي سوانا وكم سلمت لي تدبيري في أرضي وسمائي وانفرادي فيهما بحكمي وقضائي سلم وجودك لي فإنك لي ولا تدبر معي فإنك معي واتخذني وكيلاً وثق بي كفيلاً أعطك عطاء جزيلاً وأهبك فخرًا جليلاً ويحك إنا أجلنا قدرك أن نشغلك بأمر نفسك فلا تصغر قدرك يا من رفعناه لا تذكر بحوالتك على غيري، يا من أعززناه ويحك أنت عندنا أجل من أن نشغلك بغيرنا لحضرتي خلقتك وإليها خطبتك وبجواذب عنايتي إليها جذبتك، فإن اشتغلت بنفسك حجبتك وإن اتبعت هواها طردتك وإن خرجت عنها قربتك وإن توددت إلي بإعراضك عما سواى أحببتك، أيها العبد ما آمن بي من نازعني ولا وحدني من دبر معي ولا رضي بي من شكى ما أنزلت به إلى غيري ولا اختارني من اختار معي ولا امتثل أمري من لم يستسلم لقهري لو طلبت التدبير لنفسك لجهلت، فكيف إذا دبرت لها ولو اخترت معي ما أنصفت فكيف إذا اخترت علي.

أيها العبد يكفيك من الجهل أن تسكن لما في يدك ولا تسكن لما في يدي، أنا أختار لك أن تختارني، أفتختار عليّ يا مهمومًا بنفسه لو ألقيتها إلينا لاسترحت ويحك أعباء التدبير لا يحملها إلا الربوبية وليس يقوى عليها ضعيف البشرية ويحك أنت محمول فلا تك حاملاً أردنا راحتك فلا تكن لنفسك متعبًا، أيها العبد أمرتك

بخدمتي وضمنت لك بقسمتي فأهملت ما أمرت وشككت فيما ضمنت[1] ولم أكتف بقسمتي لك بالضمان حتى أقسمت ولم أكتف بالقسم حتى مثلت فخاطبت عبادًا يفهمون فقلت: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾[2] وقد رزقت من غفل عني وعصاني، فكيف لا أرزق من أطاعني ودعاني، ويحك الغارس للشجرة ساقيها والمدد للخليقة هو باريها مني كان الإيجاد وعليّ دوام الإمداد، مني كان الخلق وعلي دوام الرزق، أأدخلك داري وأمنعك إبراري؟! أأبرزك لكوني وأمنعك وجود عوني؟! أأخرجك إلى وجودي وأمنعك جودي، لك هيأت مني وفيك أظهرت رحمتي وما قنعت بالدنيا حتى ادخرت لك جنتي وما اكتفيت لك حتى أتحفتك برؤيتي، فإذا كانت هذه أفعالي فكيف تشك في أفضالي فاخترني ولا تختر عليّ ووجه قلبك بالصدق إليّ، فإن فعلت أريتك غرائب لطفي وبدائع جودي وأمتع سرك بشهودي، لقد ظهرت الطريق لأهل التحقيق وبينت معالم الهدى لذوي التوفيق، فبحق سلم إليّ الموقنون وببيان توكل عليّ المؤمنون، علموا أني خير لهم من أنفسهم لأنفسهم وأن تدبيري لهم أحرى من تدبيرهم لها فأذعنوا لربوبيتي مستسلمين وطرحوا أنفسهم بين يد مفوضين فعوضتهم عوض ذلك راحة في نفوسهم ونورًا في عقولهم ومعرفة في قلوبهم وتحقيقًا بقربي في أسرارهم هذا في هذه الدار، ولهم عندي إذا قدموا عليّ أن أجل منصبهم وأعلي محلهم، ولهم إذا أدخلتهم داري ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، أيها العبد الوقت الذي أنت تستقبله لم أطالبك فيه بالخدمة فلا تطالبني فيه بالقسمة فإذا كلفتك تكفلت لك وإذا استخدمتك أطعمتك واعلم بأني لا أنساك ولو نسيتني وأني أذكرك من قبل أن تذكرني وأن رزقي عليك دائم، وإن عصيتني، فإذا كنت لك كذلك في إعراضك عني فكيف ترى أن أكون في إقبالك عليّ. ما قدرتني حق قدري إن لم تستسلم لقهري ولا رعيت حق بري إن لم تمتثل أمري فلا تعرض عني، فإنك لا تجد من تستبد له مني ولا تغتر بغيري فلا أحد يغنيك عني، أنا الخالق لك بقدرتي وأنا الباسط لك منتي، فكما أنه لا خالق غيري، فكذلك لا رازق غيري أأخلق وأحيل على غيري فأنا المتفضل وأمنع العباد وجود خير وأنا المنعم

---

(١) يقول ابن عطاء الله في كتابه الحكم: تقصيرك فيما طلب منك وسعيك في ضمن لك دليل على انطماس البصيرة.

(٢) الذاريات: ٢٢-٢٣

فثق أيها العبد وأنا رب العباد وأخرج من مرادك إليّ أبلغك عين المراد واذكر سوابق لطفي ولا تنس حق الوداد.

(مناجاته رضي الله تعالى عنه):

إلهى أنا الفقير في غناي فكيف لا أكون فقيرًا في فقري؟! وأنا الجهول في علمي فكيف لا أكون جهولاً في جهلي.

إلهي مني ما يليق بلؤمي ومنك ما يليق بكرمك إن ظهرت المحاسن مني فبفضلك ولك المنة عليّ وإن ظهرت المساوي مني فبعدلك ولك الحجة عليّ إلهي كيف تكلني وقد توكلت لي وكيف أضام وأنت الناصر لي أم كيف أخيب وأنت الخفي بي، ها أنا أتوسل إليك بفقري، وكيف أتوسل بما هو محال أن يصل إليك، أم كيف أشكو إليك حالي وهو لا يخفى عليك، أم كيف أترجم بمقالي وهو منك بروزًا إليك، أم كيف تخيب آمالي وهي قد وفدت عليك، أم كيف لا تحسن أحوالي وبك قامت وإليك.

إلهي، ما ألطفك بي مع جهلي، وما أرحمك بي مع قبيح فعلي، وما أقربك مني وما أبعدني عنك، وما أرأفك بي! فما الذي يحجبني عنك؟!.

إلهي، كلما أخرسني لؤمي أنطقني كرمك وكلما أيأستني أوصافي أطمعتني منتك.

إلهي، من كانت محاسنه مساوي فكيف لا تكون مساويه مساوي ومن كانت حقائقه دعاوي فكيف لا تكون دعاويه دعاوي.

إلهي، كيف أعزم وأنت القاهر وكيف لا أعزم وأنت الآمر، ترددي في الآثار يوجب بعد المزار فاجمعني عليك بخدمة توصلني إليك، كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك، متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك.

إلهي، عميت عين لا تراك عليها رقيبًا، وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيبًا.

إلهي، هذا ذلي ظاهر بين يديك وهذا حالي لا يخفى عليك، منك أطلب الوصول وبك أستدل عليك فاهدني بنورك إليك وأقمني بصدق العبودية بين يديك.

إلهي، علمني من علمك المخزون وصني بسر اسمك المصون وحققني بحقائق أهل القرب وأسألك بي في مسالك أهل الجذب وأعني بتدبيرك عن تدبيري وباختيارك عن اختياري وأوقفني على مراكز اضطراري وأخرجني من ذل نفسي وطهرني من شكي وشركي قبل حلول رمسي، بك أستنصر، فانصرني وعليك أتوكل فلا تكلني وإليك أسأل فلا تحرمني، وفى فضلك أرغب فلا تخيبني ولجنابك أنتسب فلا تبعدني، وببابك أقف فلا تطردني.

إلهي، إن القضاء والقدر غلبني، وإن الهوى بوثائق الشهوة أسرني، فكن أنت الناصر حتى تنصرني وتبصرني، وأغنني بفضلك حتى أستغني بفضلك عن طلبي، أنت الذي أشرقت الأنوار في قلوب أوليائك، أنت الذي أزلت الأغيار مع أسرار أحبائك، أنت المؤنس لهم حيث أوحشتهم العوالم وأنت الذي هديتهم حتى استبانت لهم المعالم، ماذا وجد من فقدك وما الذي فقد من وجدك؟! ولقد خاب من رضي دونك بدلا، ولقد خسر من بغي دونك متحولا، كيف أهان وعليك متكلي؟ كيف أستعز وفي الذلة أركزتني، أم كيف أستعز وإليك قد نسبتني، كيف لا أفتقر وأنت الذي في الفقر أقمتني، أم كيف أفتقر وأنت الذي بجودك أغنيتني؟! أنت الذي لا إله غيرك تعرفت لك شيء، فما جلك شيء، وأنت تعرفت لي في كل شيء فرأيتك ظاهرًا في كل شيء. يا من استوى برحمانيته على عرشه، فصار العرش غيبًا في رحمانيته كما صارت العوالم غيبًا في عرشه محقت الآثار ومحوت الأغيار بمحيطات أفلاك الأنوار.

يا من احتجب في سرادقات عزه عن أن تدركه الأبصار، يا من تجلى بكمال بهائه فتحققت بعظمته الأسرار، كيف تخفى وأنت الظاهر؟ أم كيف تغيب وأنت الرقيب الحاضر.

وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي الطاهر الذكي وعلى آله، صلاة تحل بها العقد وتفرج بها الكرب ويزول بها الضرر وتهون بها الأمور الصعاب، صلاة ترضيك وترضيه وتَرْضَى بها عنا يا رب العالمين.